سورة الماعون

مكية وهي ثماني آيات مع البسملة وهي ركوع واحد

هذه السورة تسمى "الماعون"، وهي مكية عند أكثر العلماء. بينما يرى ابن عباس وقتادة أنها مدَنية. ويرى المفسر الكبير "هبةُ الله" أن نصفها مكي ونصفها مدني، ونـــزل نصفها المكي في العاص بن وائل، ونصفها المدني في أُبيّ بن سلول (فتح البيان).

أما المستشرقون فيرى "نولدكه" أنها نـــزلت في السنين الأولى من البعثة، ويرى "وليام موير" أنها نزلت في السنة الخامسة. أما القسيس "ويري" الذي يريد دائما أن يتظاهر بأنه باحث كبير ويحاول أن يأتي برأي جديد، فقال إنني أتفق مع المفسر "هبة الله" أن نصفها مكي ونصفها مدني (تفسير القرآن للقسيس "ويري").

وحيث إن أكثر المفسرين والرواة يعتبرونها مكية، فلا مبرّر أن نقدِّم بشأنها بحثًا آخر. لا شك أن ابن عباس ﷺ الذي يرى أنها سورة مدَنية هو صحابيٌ، ولكن لم يكن عمره عند وفاة الرسول ﷺ إلا نحو ١٣ سنة، لذا فإن ٩٩% من مرويات ابن عباس هو مما سمعه من الآخرين، والذي فيه احتمال الخطأ أيضا. وعلى العموم كان ﷺ شديد الذكاء، فلذا كان مصيبًا في آرائه في معظم الأحيان. علمًا أنه فيما يتعلق بشأن زمن نزول السور فقد انخدع الصحابة والتابعون أحيانًا إذ اعتبروا آية أو سورة ما مكيةً لمجرد أن قال النبي ﷺ أو أحد الصحابة إنها نزلت في فلان الذي كان من مكة، أو اعتبروها مدَنية إذا كان من المدينة. ونظرًا إلى موضوع هذه السورة، أرى أن رأي أئمة الجمهور في اعتبارها مكيةً هو الصحيح. لا شك أنهم لم يدعموا رأيهم برواية عن صحابي، إلا أن اتفاق أكثر التابعين على ذلك يدل على أنه كانت هناك روايات بهذا الخصوص حتمًا، ولكنهم لم يروا حاجة لذكرها نظرًا لشهرتها .

سبب نزولها: اختلف المفسرون في شأن نزول هذه السورة، فمنهم من قال إنها نزلت في أبي جهل، بينما يرى غيرهم أنها نزلت في الوليد بن المغيرة، ويرى آخرون إنها نزلت في كل مِن العاص بن وائل، وعمرو بن عائذ، وأبي سفيان بن حرب، واثنين من منافقي المدينة (فتح البيان والقرطبي).

لم أكن بحاجة إلى ذكر هذه الروايات، ولكني ذكرتُها هنا لأنها مثال واضح على أن اختلاف الآراء في أمر يجعله أضحوكة أحيانا. فحيث إنه ليس لديهم أمرٌ يقيني في قضيةٍ، فحريّ بهم ألا يتحدثوا عنها. فمن ذا الذي يمكنه أن يخبر فيما إذا كانت هذه الآية أو تلك السورة نزلت في فلان إلا الرسول ﷺ؟ ولو أنه ﷺ أراد ذلك لذكَر اسم ذلك الشخص أو أشار إلى فعل تلك المجموعة من الناس، وليس أن يقول قد أَخْبرني الله تعالى أنها نزلت إما في فلان أو في فلان أو في فلان. كيف يُتصور أن يقول الرسول ﷺ مثل هذا القول الظني المريب في آية قرآنية كان يتلقى من الله العلمَ بشأنها؟ فالحق أن هذه الروايات ليست من عند رسول الله ﷺ، بل هي آراء الناس فحسب، ولا نستطيع أن نعرف بها سبب نزول آية أو سورة. لقد ذكرتُ هنا أسماء سبعة فقط من بين اثني عشر شخصا ممن تقول شتى الروايات إن هذه السورة قد نزلت في أحد منهم. فالحق أنه لم تكن هناك أي حاجة للإشارة إلى هذه الروايات لدى تفسير هذه الآية.

غير أن الروايات الواردة في شأن نزول هذه الآية ذاتُ قيمة حتمًا من منظور آخر، إذ قد اتضح منها جليًا أن سبب نزول آيةٍ من الآيات لا يعني أنها نزلت في ذلك الشخص أو في ذلك الحادث فعلاً، إنما المراد أن مضمونها ينطبق على ذلك الشخص أو الحادث أيضا. ولكن إذا لم نأخذ هذه الروايات -التي تذكر اثني عشر شخصا- بهذا المعنى، لأصبحت كلها باطلة لتناقُضها فيما بينها، وعُدَّ رُواتها مفترين -والعياذ بالله- سواء كانوا من الصحابة أو التابعين. إن صلاحهم وسدادهم يحتّم علينا ألا نعتبرهم مفترين، وعليه فليس السبيل إلى تأويل هذه الروايات إلا أن نقول

إنهم لم يعنوا أن الرسول ﷺ قال إن الله أخبرني أن هذه السورة نزلت في فلان، بل كان مرادهم أنها تنطبق على فلان تمامًا بالنظر إلى أحواله حسب رأيهم.

فمن الخطأ الفاحش تحديد معنى آية في حادث خاص بناءً على رواية تذكر سبب نزولها، لأن هذا بمثابة محاولة فاشلة لحصر بحر القرآن الكريم في كوب.

إن علماء المسلمين المعاصرين عمومًا مصابون بهذا المرض خاصة، فلو قرأتَ عليهم آية قرآنية وقلتَ بأنه يُستنتج منها مفهوم كذا، لردّوا عليك فورًا: كيف تكون لهذه الآية علاقةٌ بنا! إن سبب نزولها كذا وكذا وإنها نزلت في فلان. فكما أن القارب يُربَط بشجرة أو خشبة فلا يتحرك، كذلك يربط هؤلاء آية أو سورة ما بمنافق أو مؤمن أو مهاجر أو أنصاري أو مسيحي أو يهودي ويقصرونها عليه، مع أن القرآن الكريم لم ينـــزل لشخص معين، بل نزل للناس أجمعين. إن القرآن يخاطب محمدا ﷺ والمسلمين والنصارى واليهود والمجوس وغيرهم كلهم، بل يخاطب البشر إلى يوم القيامة. فمن الخطأ الفاحش حصر آية أو سورة منه بزيد أو بعمرو، بل لا أرى جائزا أن نعتبر القرآن خاصا بالرسول ﷺ. لو خاطب القرآنُ النبي ﷺ وحده في آية لما انتفع منها باقي العالم، مع أن القرآن نزل لخير البشرية جمعاء إلى يوم القيامة. فمثلاً إذا كان الله تعالى قد خاطب رسوله ﷺ بقوله ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ﴾، فهل يعني هذا ألا يتدبر في هذا الحادث إلا الرسول ﷺ؟ إني لا أرى مبررًا لتخصيص سبب نزول آية أو سورة بالرسول ﷺ فقط، فضلاً عن أن نقول إنها نزلت في فلان من المنافقين أو المؤمنين أو الكافرين. لا جرم أن الله تعالى يقول للنبي ﷺ في القرآن مرة بعد أخرى بأننا قد أنزلنا عليك هذا القرآن، ولكن هذا لا يعني أنه لم ينـــزل من أجلنا؛ كلا، بل إنه قد نزل لنا كما نزل عليه. إنما وجهُ فضل النبي ﷺ علينا بهذا المجال هو أن الله تعالى خصه بإنزال وحيه عليه لعظيمِ صلاحه وتقواه وعرفانه وروحانيته، وجعَله أول المخاطَبين به. لقد أنزلَ كلامه على النبي ﷺ أول مرة بسبب تفوُّقه على الآخرين روحانيا وأخلاقيا وعقليا، أما بعد النـــزول فقد أصبح هذا الكلام لي ولمن يقرأ تفسيره ولسائر العالم على سواء.

وتهربًا من مشكلة سبب النـــزول هذه قد قال الرازي وغيره من العلماء: يجب الاهتمام بمضمون هذه الآيات بدلاً من الاهتمام بسبب نـــزولها (الرازي). لكن الحق أن القوم قد أخطأوا في فهم معنى سبب النـــزول كما بينتُ من قبل، أما لو أخذوا بالمفهوم الذي سأبيّنه بشأن النـــزول فلم يعُدْ مفهوم هذه الآية محدودا.

أتناول الآن مضمون هذه الروايات. قال بعض الرواة: لقد نحر أبو جهل أو العاص بن وائل جملاً، فجاء يتيم يسأله من لحمه، فغضب وضرَبه بالعصا. ما كان بوسعه أن يأكل لحم الجمل وحده، بل كان لا بد له أن يوزّعه على الآخرين، ولكنه كان يريد توزيعه على قوم معينين رياءً وسمعة، فلما سأله اليتيم ضربه. وتذكر الروايات الأخرى أشخاصا آخرين وأعمالاً أُخرى، ولكنها كلها متفقة على أن الكافر أساء إلى اليتيم. إن ملخص هذه الروايات كلها يؤكد أن مفهوم هذه السورة يمكن انطباقه على كل كافر؛ سواء أكان أبا جهل أو الوليد بن المغيرة أو العاص بن وائل أو عمرو بن عائذ أو أبا سفيان بن حرب أو منافقا من المدينة، إذ كان كل منهم بخيلاً وظالمًا لبُعْدِه عن روح دين محمد ﷺ. بل الواقع أن هذا المعنى لا ينطبق على عشرة أو اثني عشر شخصا فقط، بل ينطبق على الملايين. فمثلاً لو درستَ أحوال سكان العالم المعاصر -البالغ عددهم نحو مليارين- لوجدتَ أن مليارا منهم بل أكثر يكذّبون بالدين علنًا، أما ٦٠٠ أو ٧٠٠ مليون منهم فلا ينكرون الدين بأفواههم، ولكنهم من الفئة الأولى في الحقيقة، أما الباقون فأكثر من ٣٠٠ مليون منهم يؤمنون بالدين ولكن ينكرونه عمليا، أما المؤمنون بالدين حقًا فهم قلة قليلة لا يبلغون إلا الآلاف أو مئات الآلاف. فيمكننا القول إن هذه الآية قد نزلت بشأن هذا الكم الهائل من الناس جميعًا، وإلا فكيف يعدّهم الله تعالى مجرمين يوم القيامة؟ إذ يقولون بكل بساطة لم تنـــزل هذه الآية فينا، وإنما نزلت في فلان. إنما يمكن إقامة الحجة عليهم إذا قلنا إنها تخاطب كل من يكذّب بالدين، وهي ليست خاصة بأحد.

لقد قال المفسرون الذين يرون أن هذه الآية نزلت في أبي جهل أنه كان عنده مال ليتيم، فجاءه ذات مرة حافيًا عاريًا يطالبه برد ماله إليه، فنهره أبو جهل، فعاد

يائسا. فقال له بعض زعماء قريش الأشرار اذهبْ إلى محمد (ﷺ) واستعنْ به فإنه يدّعي نصرة الفقراء، وكانت نيتهم أنه (ﷺ) لو شفع له عند أبي جهل فلا بد أن يسيء إليه فتسخر منه البلد كلها، وإذا لم يشفع له قلنا للناس إنه يدّعي نصرة الفقراء ولكنه لم يشفع ليتيم جاء يستنصره. وكان النبي ﷺ قد تعاهد في "حِلْف الفُضول" على نصرة الفقراء، فلما جاءه اليتيم فما لبث أن خرج معه دون أن يفكّر أنه ذاهب إلى عدو لدود له، فطرق عليه الباب، فلما خرج أبو جهل قال له النبي ﷺ لقد احتفظت بمال هذا اليتيم أمانةً، فادفعه له فإنه بحاجة إليه. فدخل أبو جهل إلى البيت فورا وأتى بمال اليتيم وأعطاه إياه. فلما علمت قريش بذلك أخذوا يلومون أبا جهل ويقولون له لقد صبأت -علمًا أنه كانت في العراق طائفة تسمى الصابئة وتنتسب إلى إبراهيم عليه السلام، ولما كان الرسول ﷺ يسمي دينه دينًا حنيفا فكانت قريش تسمي مَن آمن به ﷺ صابئًا- فأجابهم أبو جهل والله ما صبأت، بل حين جاءني محمد رأيت على يمينه وشماله جملَيْن هائجين، فخفتُ أن يهاجماني إذا لم أنفذ أوامره.

لقد وردت هذه الرواية في بعض المصادر بشيء من الاختلاف، وأرى أن التي أوردتُها هي الأصح. فقد ورد أنه قبل دعوى الرسول ﷺ اجتمع ثلاثةُ نفر اسم كل واحد منهم "فَضْل" وشكّلوا جمعيةً سموها "حلف الفُضول" حالفين على نصرة المظلوم دائمًا -وقد دعوت أنا أيضًا إلى حلف كهذا تأسيًا بهؤلاء الشرفاء، ولكن الأسف أن دعوتي لم تنجح حتى الآن، وسوف تنجح حين يريد الله تعالى، وكنت دعوت إليه بناءً على رؤيا رأيت فيها وكأن الله تعالى قد أمرني أن أقول لأفراد أسرتي إنهم سينجون من الدمار ما داموا عاملين بحلف الفضول- ثم ذهب هؤلاء الفتية إلى الرسول ﷺ، فدخل معهم في هذا الحلف حالفًا على نصرة الفقراء والمظلومين. ولكن هؤلاء الفتية نسوا هذا الحلف بعد فترة، أما الرسول ﷺ فلم ينسه إذ كان إنسانًا صادقًا، فبعد أن أعلن دعواه أراد بعض المعارضين الأشرار اختباره، فقالوا: إنه قد حلف على نصرة المظلومين فتعالوا نجرّبه. وورد في الروايات أن أعرابيًّا كان قد ائتمن أبا جهل على بعض ماله، ولكنه امتنع عن ردّه له، فكان

هذا الأعرابي يأتي إلى مكة ويصرخ بين أهلها قائلا: إننا نأتي إلى مكة للبيع والشراء ولكن أهلها يظلموننا مع ادعائهم أنهم حماة بيت الله وأصحاب دين وخُلق. فكان القوم يسألونه عن مشكلته، فكان يخبرهم أن أبا جهل قد أخذ ماله ولا يردّه له. كان الأعرابي ساذجا ومظلوما أيضا، فلم يزل يأتي ويصرخ مرة تلو مرة، فقرر القوم بعد التشاور أن يبعثوه إلى محمد ﷺ. فقالوا له: اذهبْ إلى محمد فإنه سينصرك على أبي جهل، وكان بنيَّتِهم أنه ﷺ إذا رفض الذهاب معه لنصرته قالوا: انظروا إلى محمد، لقد حلف على نصرة الفقراء ولكنه لا يعمل بما حلف عليه، وإذا ذهب معه إلى أبي جهل فلن يقبل بشفاعته بل سيسيء إليه ويهينه. فذهب الأعرابي إلى النبي ﷺ وقص عليه قصته، فأخذ ﷺ رداءه وخرج معه لنصرته فورا، فطرق الباب على أبي جهل. فلما خرج قال له النبي ﷺ إن لهذا الأعرابي مالا عندك، وهو بحاجة إليه، فرُدَّ له ماله. قال: سآتي به حالا. فدخل وأتى بالمال ووضعه في يد الأعرابي. فلما علم أصدقاء أبي جهل بما فعل أخذوا يلومونه بأنك كنت تقول لنا إن أكل مال هؤلاء القوم حلال -كما يقول المشايخ اليوم أن سلب أموال المسلمين الأحمديين وأكلها حلال- ولكنك رددت له ماله فورا. لقد أردنا أن نهين محمدا، فأهنتنا نحن. فقال أبو جهل: لما خرجتُ إلى محمد رأيت على يمينه وشماله جملين هائجين كادا يهاجمانني، فخفت ورددت له المال.

هذه واقعة تاريخية. فسواء قلت إن الذي جاء النبيَّ ﷺ ليشفع له عند أبي جهل هو اليتيم أو الأعرابي، فإن الثابت من التاريخ أن النبي ﷺ ذهب إليه واستردّ منه مال المظلوم.

لقد ورد في الحديث أن النبي ﷺ سُئل مرة: هل هناك شيء في الجاهلية كنتَ تحبّه كثيرا؟ قال: نعم، "حلف الفضول"، ولا أزال أحبه في الإسلام، ولو دُعيتُ الآن لأجبتُ (السيرة النبوية لابن هشام: حلف الفضول).

إن نصرة المظلوم خلُق عظيم، ولكنه قد اندرس بين المسلمين للأسف الآن. إنهم يُبْدون عادة حماسا شديدا، ولكن لا يهبّون لنصرة المظلوم، بل إذا تطلب الأمر

نصرته نظر بعضهم إلى بعض، وانحاز لصديقه، مع أن التقوى الحقيقية هي أن يقف لنصرة المظلوم ولا يبرح بابَ الظالم حتى يستردّ له حقه.

ترتيب السورة: إن هذه السورة تتمة لموضوع السورة السابقة، فقد بيّن الله تعالى في السورة السابقة أننا وفّرنا لقريش رزقًا وفيرًا لكي يعبدوا الله تعالى عاكفين عند بيته، لكنهم أصبحوا عنه غافلين، أما في هذه السورة فبيّن أن الأمم إذا غفلت فلا تبرح غارقة في غفلتها حتى يُنسيهم حبُّ الدنيا الموتَ، فلا تؤمن بالحياة الآخرة. وهذه هي حالة أهل مكة أيضا، وإلا أفليس غريبًا أن تصبح ذريّة إبراهيم منكرة للقيامة؟

لقد كان إبراهيم عليه السلام من أولي العزم من الرسل وقد أراد إرساء الدين على أسس عميقة متينة، وكان أساس تعاليمه ومواعظه رضا الله تعالى وقربُه، أفليس مذهلا أن تقول ذريته إن الدنيا حلوة لذيذة، ومَن ذا الذي قد رأى الآخرة؟! إن هذا التغير الكبير لا يمكن أن يحدث في قوم إلا إذا أصابهم الفساد على نطاق كبير. ومما يبعثني على العجب أكثر أن كلتا الطائفتين من آل إبراهيم عليه السلام قد صاروا عندها منكرين للبعث بعد الموت. كان آل إبراهيم فرعين: بنو إسحاق وبنو إسماعيل، وكان بنو إسماعيل –وهم أهل مكة– لا يؤمنون بالحياة بعد الموت، أما بنو إسحاق فإن قليلا من الناس يعرفون أنهم محوْا ذكرَ البعث بعد الموت من كتبهم تماما. يظن عامة وعّاظ المسلمين أن اليهود كانوا يؤمنون بيوم القيامة، مع أنه لا يوجد ذكر للقيامة في الكتب اليهودية أصلا. إذا كان بعضكم قد طالع العهد القديم، فسوف يشهد على صدق ما أقول. ومن لم يكن يطالعه، فيمكنه أن يقرأه الآن، بل لا حاجة لأن يقرأه، إنما عليه أن يتصفح بضع صفحات منه من أي مكان ويقارنها ببضع صفحات من أي مكان من القرآن، ليرى كم مرة ذَكر القرآن الحياةَ بعد الموت، وكم مرة ذكرها العهد القديم، ولسوف يتبين له بجلاء أن القرآن الكريم قد ذكر البعث بعد الموت مرارا في هذه الصفحات القليلة، أما العهد القديم فلم يشر إلى البعث بعد الموت في تلك الصفحات، بل ولا في ضِعْفها. الواقع أن ذكر

الحياة بعد الموت كان قد اندرس من بين اليهود تماما قبل بعثة الرسول ﷺ. لا نصدّق أبدًا أن اليهود لم يُخبَروا بالحياة بعد الموت من قِبل أي من أنبيائهم مثل إبراهيم وموسى أو الأنبياء الذين أتوا بعد موسى تتْرًا كداود وسليمان وإلياس وزكريا ويحيى عليهم السلام. فخُلُوُّ العهد القديم من ذكر الحياة بعد الموت لدليلٌ بيّنٌ على أن اليهود قد حذفوا مثل هذه الأمور من كتبهم؛ إذ لا تجد فيها مجرد إشارة إلى هذه القضية البالغة الأهمية، بينما تجد القرآن الكريم مليئا بالحديث عن البعث بعد الموت. وعندي أن هذا التغيير في العهد القديم إنما حصل لأن اليهود طبّقوا آياته المتعلقة بالحياة الآخرة على هذه الدنيا خطأً، وعندما وجدوا أجزاء من كتابهم تلقي الضوء على فكرة الحياة بعد الموت حذفوها منه. شأنهم شأن المسلمين اليوم الذين قرأوا في القرآن الكريم قول الله تعالى ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ﴾(الرحمن:٤٧).. أي أن له جنة في هذه الدنيا وجنة في الآخرة، فركّزوا كل التركيز على جنة الآخرة، فظنوا أنهم سينالون هاتين الجنتين في الآخرة. فاليهود لما رأوا أن الله تعالى قد وعدهم في كتبهم بأنواع النعم، ظنوا بسبب غلوّهم أنها كلها تتعلق بالدنيا إذ كانوا مولعين بنعم الدنيا، فحذفوا من كتابهم الأجزاء التي صعب عليهم إخضاعها لمعتقدهم الخاطئ هذا.

ويوجد في القرآن الكريم آيات كثيرة تتعلق بهذه الدنيا، ولكن المسلمين طبقوها على الآخرة خطأً، فهناك في الجزء الثلاثين من القرآن الكريم أنباء كثيرة تنطبق على هذه الدنيا حرفيًا، وعندما يقرأها المرء في القرآن، ثم يرى الأحداث التي تقع اليوم في الدنيا وفقًا لتلك الأنباء، فيرقص قلبه فرحًا، فلا يملك إلا أن يسبح الله تعالى ويزداد يقينًا بوعوده ﷻ. ولكن المفسرين يطبقون كل تلك الأنباء على القيامة، والطبيعي أن أحدا إذا أيقن أن سورة كيت وكيت تتحدث عن يوم القيامة قال: انتهى الأمر، فالآن لا حاجة بي للتدبر في هذه السورة. أما اليهود ففعلوا العكس، فطبّقوا كل الآيات التوراتية المتعلقة بالحياة الآخرة على هذه الدنيا. الواقع أن الصحف السماوية تتحدث عن الآخرة بلغة الاستعارة والمجاز دائمًا قائلة: ستكون في الآخرة أنهار من لبن وخمر وما إلى ذلك من النعم، واللّبن في لغة الوحي يعني

العلم، والخمر يعني الحبّ، ولكن اليهود ظنوا أنهم سيجدون هذه النعم كلها في هذه الدنيا، فلذلك طبّقوا كل الإشارات التي وجدوها في كتبهم عن الحياة بعد البعث على هذه الدنيا أو حذفوها من كتبهم نهائيا عندما وجدوها لا تخضع للتأويل، ومن أجل ذلك لا نجد في العهد القديم أي ذكر للحياة بعد الموت البتة.

إذن، إنه لمن المستغرب حقًا أن تمحو كلتا الطائفتين من نسل إبراهيم عليه السلام ذكر الحياة الآخرة من كتبهم قبل بعثة النبي ﷺ. لا شك أنه يوجد عند المسيحيين تصور للحياة الآخرة، ولكن ليس عندهم علامة معينة للحياة الآخرة. فلو سُئلنا نحن المسلمين عن الجنة والنار لوصفناهما كما لو أننا نراهما رأي العين، أو كما لو أننا نقوم بوصف مدينة قد زرناها، ذلك لأن الإسلام قد تحدث عن الجنة والنار كثيرا، ولكن لو سألتَ المسيحيين عن الجنة والنار لوجدت عندهم تصورًا غريبًا مشوشا. وعلى سبيل المثال، قد قال الرسول ﷺ "لا تَقُومُ السَّاعَةُ إلا عَلَى شِرَارِ النَّاسِ" (ابن ماجة، كتاب الفتن).. أي أنها تقوم عندما لا يبقى في الدنيا أخيار –علمًا أن هذا لا يعني أن خَلْق الله يفنى كلية، بل المعنى أن كونَنا هذا سيفنى، وسيخلق الله مكانه كونًا آخر– أما بحسب عقيدة المسيحيين فإن القيامة ستقوم على الأخيار، إذ يؤمنون أنه إذا جاء المسيح في الزمن الأخير ثانية سيفنى الأشرار كلهم وسيعيش الأخيار إلى الأبد، فتصبح هذه الدنيا نفسها جنة. مما يعني أن اليهود رضوا بهذه الدنيا المادية، أما النصارى فاعتبروها جنتهم، وما داموا سيعيشون في هذه الدنيا نفسها وهي التي تصبح لهم جنة، فهذا يعني أنهم سيأكلون لحوم خرفان هذه الدنيا ويشربون ألبان بقر هذه الدنيا ويأكلون ثمار هذه الدنيا. أما القرآن الكريم فأعلن أن أهل الجنة إذا أكلوا فواكه الجنة ازدادوا حبًّا لله تعالى، وإذ شربوا لبن الجنة ازدادوا معرفةً بالله تعالى، وبيّن أن نِعم الدنيا لا تساوي أمام نِعم الآخرة شيئًا، إذ لا مقارنة بينهما. وإذا كان النصارى يرون أن الأخيار الروحانيين عندما يعيشون في هذه الدنيا للأبد، فتصبح هذه الدنيا جنة لهم، فهذا يعني أن الناس لو أصبحوا في هذه الدنيا أخيارًا وعاشوا فيها عيشة الصالحين متجنبين الشر والعصيان، فلا حاجة لأي جنة أخرى عند المسيحيين، لأن هذه الدنيا نفسها تسمى جنة، وإذا كان الأمر

كذلك فإن تصور المسلمين للجنة التي يزداد فيها الإنسان روحانية حتى يرى الله تعالى هو تصور خاطئ تماما عند المسيحين، إذ يرون أنه إذا لم يبق من شرار الناس أحد في هذه الدنيا صارت جنةً، وأصبحت نعمها نِعَمَ الجنة بالنسبة إليهم، وذلك مع أن علماءهم يعتبرون هذا الزمن أسوأ من الأزمنة الغابرة.

وهذا هو حال عامة المسلمين أيضا، إذ يرون الجنة مجموعة من النعم المادية الدنيوية؛ عقد المسؤولون في "دار الندوة"● اجتماعا في مدينة "لكهناو" عام ١٩١٢، واستدعى المرحومُ المولويُّ شبليّ لرئاسته العلامةَ رشيد رضا من مصر. والعلامة رشيد رضا تلميذ للمفتي محمد عبده الذي هو تلميذ لجمال الدين الأفغاني. وأسلوب تفسير الأفغاني يشبه أسلوب تفسيرنا إلى حدٍّ ما، وإن لم يبلغ درجته. ولأن المفتي محمد عبده كان يجتنب ما يخالف العقل والنقل وما يتيح لأعداء الإسلام فرصة الاستهزاء به، فلاقى تفسيره رواجًا كبيرا في مصر. وقد سلك رشيد رضا مسلكَ أستاذه، فتمتع بشعبية كبيرة في مصر، وإن كان دون أستاذه شعبيةً. المهم أن الشيخ شبليّ دعاه لرئاسة هذا الاجتماع، وكان هذا في عهد الخليفة الأول ﷺ للمسيح الموعود عليه السلام، وكنت عندها مسؤولا عن المدرسة الأحمدية، فأردتُ الخروج برفقة بعض علماء جماعتنا في جولة استطلاعية أزور خلالها المدارس العربية المشهورة في الهند وأرى نظام الإدارة والتعليم فيها، لأنتفع بهذه التجربة لرفع مستوى مدرستنا. فرأينا خلال هذه الجولة المدارسَ الدينية في "ديوبند"* و"فرنجي محل" و"رامبور" و"بنارس" و"دلهي"، كما زرنا مدرسة "العقائد" في "كانبور". فعَلِمَ المولوي شبليّ بخروجنا في هذه الجولة، ولم يكن كمشايخ اليوم بل كان إنسانا مرحًا غير متعصب، فأصرّ علينا أن نحضر هذا الاجتماع ونقيم عندهم. فوصلنا إلى

● "دار الندوة" مؤسسة دينية في الهند، قد تخرّج منها علماء كثيرون، وقد اشتهروا بالندويين. (المترجم)

* "ديوبند" اسم مدينة هندية فيها مؤسسة دينية باسم "مدرسة ديوبند"، قد تخرّج منها علماء كثيرون، وقد اشتهروا بالديوبنديين. (المترجم)

مدينة "لكهناو" لحضور الاجتماع، ولكنا لم نُقِمْ عندهم كيلا يعرف المشايخ المعارضون لنا بوجودنا هناك فيتضايقوا، ولكيلا تحدث أي مشكلة. ولكن لما علم المولوي شبليّ بأننا مقيمون في مكان آخر أَخَذَنا معه بإلحاح، فأقمنا عندهم وحضرْنا الاجتماع الذي استمر يومين، مما أدى إلى بعض المشاكل؛ حيث كال لنا غيرُ الأحمديين الشتائم، لكن المولوي شبليّ كان شهمًا قويًّا، فلم يبالِ بالمعارضين. وفي إحدى ليالي هذا الاجتماع ألقى البروفيسور عبد الكريم الندوي خطابًا حول الصلاة، وقد دُعي لاستماعه كبار زعماء البلد وعلمائها ومثقفيها. لا أتذكر أكان المولوي شبليّ موجودا في تلك الجلسة أم لا، لكننا حضرناها لنسمع خطاب البروفيسور. وكان المولوي شبليّ قد دعا الشباب خاصة لسماع هذا الخطاب ترغيبا للناس في أداء الصلاة، فحضره كثيرون بينهم المحامون وغيرهم. ولسوء الحظ، لم يكن المولوي شبليّ يعرف شخصيًا مبلغ علم البروفيسور عبد الكريم الندوي. لعله كان معلِّما جيدا للعربية فأحسن شبليّ به الظنَّ فدعاه لإلقاء الخطاب حول الصلاة. فقام خطيبا وتكلّم عن الصلاة بجملتين أو ثلاثٍ قائلا إن واجب المرء أن يصلي، لأن هذا أمر من أوامر الله، ومَن صلى دخل الجنة. ثم نسي البروفيسور موضوع الصلاة، واسترسل في وصف الجنة، فأخذ يرسم الجنة رسما خطيرا لم يكن مختلفا عن بيوت الدعارة. قال ستكون في الجنة صور مختلفة للنساء، وإذا أُعجب المرء بصورة تحولت إلى امرأة، فيأخذ في جماعها، وسيفعل كذا وكذا، ويكون عنده قوة جنسية هائلة، فيظل يجامعها ٢٤ ساعة! أتذكر أنه كان بجانبي بعض المحامين فعلّقوا على الخطاب قائلين: نحمد الله تعالى أن هذه المحاضرة أُلقيت بالليل، ولو أُلقيت بالنهار وحضرها غير المسلمين لاضطررنا لإخفاء وجوهنا منهم ندما وخجلا.

فعامة المسلمين أيضا قد جعلوا الجنة –التي هي في الحقيقة مكان الروحانيةِ ورؤيةِ البارئ تعالى– شيئًا مخجلا جدا. وليس هذا التصرف إلا بمنـــزلة إنكارهم للدين. فهل يعقل أن يقال لنا عن هذه الدنيا –التي هي مليئة بآلاف أسباب اللهو والغفلة عن الله تعالى– بأنك إذا غفلت فيها عن الله أصبحت كافرا، أما الدار الآخرة التي

سنتمتع فيها برؤية الله فيقال عنها بأننا سنكون في أحضان النساء كل حين، فلا صلاةَ ولا عبادة ولا مشاعر حب الله ولا أسباب الرقي الروحاني؛ فكأننا جُعلنا في الدنيا كافرين، وفي الجنة أيضًا كافرين.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ﴿١﴾

أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يُكَذِّبُ بِٱلدِّينِ ﴿٢﴾

شرح الكلمات:

أرأيت: يعني: أخبِرْني. وكلمة "رَأَى" تُستعمل لرؤية العين ورؤية القلب أيضًا. فمثلا لو قلتُ عن هذه الساعة الموضوعة أمامي: رأيت الساعة، فهذه رؤية عين (المفردات للإمام الراغب)، أما رؤية القلب فتعني أن تجد الشيء بوصف معين. يقال رأيت زيدًا أسدا، وهذا لا يعني أني رأيت له براثن أيضا، بل المراد أنك اختبرته في الشدائد فوجدته شجاعا باسلا كالأسد، فلأن قلبك استنتج ذلك بعد هذه الخبرة، فهي رؤية قلب، لأن الخبرة تكون بالقلب لا بالعين.

وهذا التعبير موجود في لغتنا الأردية أيضًا، إذ نقول: رأيته هكذا، ووجدته بهذه الصفة.

إذا أريدَ بفعل "رأى" رؤية قلب فيكون له مفعولان، وإذا أريد به رؤية عين فيكون له مفعول واحد.

وإذا سبقت الفعلَ "رَأَى" همزةُ الاستفهام أفاد معنى لا يوجد في أصله، فمثلاً إذا قلت "أرأيت" كان المراد: أَخبِرْني (الأقرب).

الدين: الدين في العربية تفيد ثلاثة عشر معنى، هي: الجزاء؛ المكافأة؛ الطاعة؛ الحساب؛ القهر والغلبة والاستعلاء؛ السلطان؛ التدبير؛ ما يُعبد به الله (أي الحركات الجسدية والكلمات التي نعبد بها الله تعالى والتي نسميها الصلاة)؛ الملة؛ الورع؛ الحال؛ القضاء؛ العادة؛ الشأن (الأقرب).

ولفظ الشأن يستعمل بمعنى الحالة، وأيضا بمعنى الحالة الخاصة أي بمعنى القدْر والمنـــزلة أيضا.

وجميع المفسرين والنحاة متفقون على أن قوله تعالى ﴿أَرَأَيْتَ﴾ يعني أخبِرْني. وقد قلت آنفًا إنه إذا أُريد بفعل الرؤية رؤيا قلب، فيكون له مفعولان، وأحد المفعولين ظاهر هنا وهو قوله تعالى ﴿الذي يُكَذِّبُ بالدِّينِ﴾، فأين المفعول الثاني يا ترى؟ إنه محذوف، وهو عند النحوي الشهير "الحَوْفي": "أليس مستحقًا عذابَ الله"؟ أما الزمخشري فيرى أن المحذوف هو: "مَن هو"؟ (روح المعاني والكشاف)

والزمخشري من المعتزلة الذين أفكارهم تشبه أفكار الطبيعيين في العصر الحاضر، لكنه طويل الباع في الأدب والنحو، وقد ألّف قاموسا للعربية، ومِن خدماته للقرآن الكريم استشهاده بأقوال العرب وشعرهم بكثرة في شرح مفردات القرآن ونحوِه، مما يكشف معانيه بجلاء. ومن خدماته أيضا أنه نزَّه تفسيره من كل رطب ويابس وكلام سخيف، وإنْ كان الزمخشري ينكر المعجزات إلى حدّ ما. الواقع أن الشخص المتَّبع للمنهج الطبيعي يحمل سيفًا ذا حدّين؛ يقطع به كلَّ ما هو لغو وعبث، والمعجزاتِ الحقّة أيضًا.

لو أخذنا بالمحذوف الذي ذكره الزمخشري فستعني هذه الآية: يا محمد، أو يا أيها المخاطب، أرأيت الذي يكذب بالدين مَن هو؟

وقد استدل الزمخشري على كون الرؤية هنا رؤيةَ قلب لا رؤيةَ عين برواية تقول إن عبد الله بن مسعود قال إن إحدى قراءات هذه الكلمة هي: "أرأيتك". والمعروف أنه إذا كان المقصود رؤية عين فلا يُستعمل كاف الخطاب (الكشاف والبحر المحيط).

ولكن لا داعي لتقديم أي دليل كهذا، فلا يمكن أن يراد هنا إلا رؤية قلب.

ويرى الحوفي أنه قد يكون المراد هنا رؤية عين، وليس ثمة محذوف (البحر المحيط)، والمعنى: أنك قد رأيت مَن يكذب بالدين حتمًا، فالهمزة هنا ليست للإنكار بل للتأكيد، مثل قوله تعالى ﴿أَلَمْ ترَ﴾.. أي قد رأيت بكل تأكيد.

الحق أن المراد هنا رؤية قلب لا رؤية عين، ذلك أنه إذا كان الحديث عن رؤيتك أناسًا كثيرين فلا يراد بها رؤية عين بل رؤية قلب. وقوله تعالى ﴿يُكَذِّبُ بِالدِّينِ﴾ ليس إشارة إلى شخص معين، بل إلى أهل مكة كلهم الذين كانوا يكذبون بالدين، بل إلى العالم كله؛ فما دام الحديث هنا عن قوم لا عن فرد واحد فليس المراد هنا رؤية عين بل رؤية قلب، إذ لم تُستعمل صيغة المفرد هنا إلا بسبب شخصية متصورة في الذهن، فكأننا تصورنا فِعْلَ أو عملَ أو طريقةَ قومٍ كشخصية قد تراءت أمام أعيننا. فالحق أن الأخذ بتأويل الحوفي أيضًا لا يجعل الرؤية رؤية عين بل هي رؤية قلب، وإنْ لم يكن هناك مفعول ثانٍ.

باختصار، هذا ما قاله الحوفي، أما سائر العلماء فمتفقون أن المراد هنا رؤية قلب.

لقد بينتُ مرارا أنه إذا كان للكلمات والتعابير المستعملة في القرآن أكثر من معنى، وكانت كلها منسجمة مع السياق، فسنأخذ بها كلها باعتبارها صحيحة، وعليه فنقول إن هذه الآية تحتوي على كلّ من معاني "الدين" المذكورة آنفًا ما دام منسجمًا مع مضمون هذه السورة، ولا يحق لأحد أن يرفض أيًّا منها.

وأقوم الآن بتفسير الآية بناء على هذه المعاني المختلفة لكلمة الدين.

فقوله تعالى ﴿أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالدِّينِ﴾ يعني:

١: أَخْبِرْني مَن الذي يكذِّب بالجزاء والمكافأة.

٢: أَخْبِرْني من الذي يكذِّب بالطاعة، أي النظام.

٣: أَخْبِرْني من الذي ينكر غلبة الحق والعدل.

٤: أَخْبِرْني من الذي ينكر السلطان (أي السلطة الإلهية).

٥: أَخْبِرْني من الذي ينكر الدين.

٦: أَخْبِرْني من الذي ينكر عبادة الله.

٧: أَخْبِرْني من الذي ينكر النظام القومي (أي النظام الديني).

٨: أَخْبِرْني من الذي ينكر رغبة تجنُّب الشبهات.

٩: أَخْبِرْني من الذي ينكر قوة تأثير العادة.

١٠: أَخْبِرْني من الذي ينكر التدبير الصحيح.
١١: أَخْبِرْني من الذي ينكر قضاء الله وقدره.
١٢: أَخْبِرْني من الذي ينكر شؤون الله وتجلياته.

هذه اثنا عشر معنى وكلها تنطبق هنا. لقد تركتُ بعض المعاني المذكورة في القواميس، كالحال مثلاً، لأنه قريب جدًّا من الشأن الذي أخذته. وقسمتُ معنى الملة إلى اثنين، لأن كليهما ينطبق هنا. كما تركت معنى الحساب، لأنه مندرج في الجزاء والمكافأة.

وأقوم الآن بتفسير الآية على ضوء هذه المعاني واحدا تلو الآخر.

التفسير:

المفهوم الأول: أي: أَخْبِرْني من الذي ينكر الجزاء والمكافأة. وتعبيرُ "أَخْبِرْني" يدل على شناعة فعل المرء وعِظَمِ سوءه. وفي لغتنا الأردية أيضًا يقال: أَخْبِرْني من الذي قال هكذا. ولا يراد به السؤال عما إذا كان القائل هو زيد أو عمرو، بل يراد به التشنيع على قوله. وعليه، فإن الله تعالى يقول هنا إن قائل هذا الكلام سيئ جدا.

علمًا أن هذه المفاهيم الاثني عشر –التي سبق ذكرها– تشير في الواقع إلى سيئات أساسية تُورِّطُ المرءَ في آلاف المعاصي الأخرى، وكأن سيئة واحدة منها تنتج آلافًا مثلها. خذوا مثلاً مفهوم الجزاء والمكافأة، فإن منكره يتجرأ على كل أنواع المعاصي، لأن هناك آلاف الحسنات التي يقوم بها المرء خوفًا، وآلاف الصالحات التي يعملها أملاً. وليس الجزاء والمكافأة ما يكون في الآخرة فقط، بل إن ظاهرة الجزاء تبدأ من هذه الدنيا نفسها كما أكد القرآن الكريم ذلك في عشرات الآيات؛ فأنواع العذاب الذي يحلّ بمنكري الأنبياء وصنوف العقوبات التي تنـــزل بالذين يخالفون نواميس الطبيعة إنما تظهر في هذه الدنيا. إذن، فالذي يكذّب بالدين لا يراد به منكر الجنة والنار، بل يعني من ينكر جزاء الأعمال، سواء في الدنيا أو الآخرة.

إننا نشاهد أن الذين ينكرون الجنة والنار ولكنهم يؤمنون بالجزاء والمكافأة، هم أيضًا يتجنبون آلاف السيئات. فمثلا هناك قوم منهم يؤمنون بنتائج المفاسد القومية، بمعنى أن الأمة إذا أصيبت بمفاسد معينة هلكت، وإذا تحلّتْ بمزايا معينة نجتْ؛ فإذا تعلّمَتْ مثلاً، واعتادت الصدق، وتميّزت بالجد والكدح، وتحلّت بالتضحية والإيثار ازدهرتْ، وهذا هو الجزاء والمكافأة بعينه. إن الأمم التي يتنامى فيهم الشعور بأن هذه الأمور لا تخلو من عواقب، فإنها تُصلِح ما بها من عيوب وتحرز الرقي. لا شك أن الشعوب الأوروبية المسيحية تؤمن بأفواهها بالجزاء في الآخرة، ولكنها ملحدة عمليا، إذ لا يوجد أي أمل للحياة الآخرة إلا عند غير المثقفين منها، أو عند طبقة معينة من القسيسين، ومع ذلك فقد أدرك هؤلاء الملحدون بدراسة عميقة للتاريخ أن تصوُّرَ العامة بأن بعض الأعمال تبقى من دون نتيجة تصوُّرٌ باطل؛ كلا، ليس هناك عمل يظل بدون نتيجة فرديًّا كان أم جماعيًّا، بل كل عمل يُعقِب نتيجةً، فإذا كان حسنًا فحسنة، وإذا كان سيئا فسيئة. لقد أيقنوا من خلال النظر في القانون الطبيعي الجاري في الدنيا، لا بسبب ابتغائهم مرضاة الله، أنه ما من عمل إلا ويُجزى عليه صاحبه، ولذلك يسعون كأُمّةٍ جاهدين بالتحلي بالأخلاق السامية. إنهم لا يصدُقون القول فيما بينهم إرضاءً لله تعالى أو طمعًا في الجنة، بل لأن الناس لن يثقوا بهم بدون ذلك، وإذا لم يثقوا بهم لم يتعاونوا، وإذا لم يصدقوا القول مع الأمم الأخرى فقدوا ثقتها بهم وبارت تجاراتهم. كانت للهند تجارة مع البلدان الأخرى تبلغ الملايين، ولكنها أصيبت بالكساد لأن أهلها لم يصدقوا القول. أما الأوروبيون فرغم أنهم لا يتورعون عن الكذب في المعاملات الفردية، إلا أن الواحد منهم لا يكذب كذبًا يضرّ بقومه. لو قلتَ لصاحب محل في بلادنا أن يبعث إلى بيتك سلعة معينة، فلن يبعث مما رأيته معروضًا في محله، ولكن لو طلبت شيئًا من محل في أوروبا أو أمريكا فسوف يأتيك كما طلبته تماما بعد ستة أشهر أو سنة. والسخرية التجارية التي نعانيها في بلادنا لن تراها في البلدان الأخرى، إذ ينشرون عندنا إعلانات في الجرائد أنك إذا اشتريت منهم بعض الأشياء لحصلت على هديّة؛ ساعةٍ أو قلم سائل، ثم يبعثون لك ساعة لا

تساوي نصف روبية، أو يعطونك قلمًا مستوردًا من ألمانيا ليس ثمنه إلا بضعة قروش، وهذا خداع مكشوف وغش صارخ لن تجده عند الأوروبيين، لأنهم يعرفون أنه إذا لم يكن خلُقهم القومي عاليا فازدهار تجاراتهم محال. إنهم يبيعون بضائعهم للبلاد الأخرى، ولذلك يعاملونهم معاملة تضمن لهم الصيت الحسن. هذا الأمر تجده في أهل إنجلترا وأمريكا خاصة. كانت في ألمانيا فئة من التجار يمارسون الغش، ولكن عامة الألمان ليسوا كذلك. وتجارة سويسرا مزدهرة بشكل خاص بعد تجارة أمريكا وإنجلترا. لو طلبت من هؤلاء القوم بضاعة وصلتك بحسب شروطك تماما. فلو طلبت من فرنسا شيئًا مثلاً جاءك مطابقًا لشروطك بنسبة ٩٠%، ولكنك لو طلبت من أحد تجار الهند بضاعة لكانت فاسدة بنسبة ٩٠%.

إذن فليس المراد من إنكار الجزاء والمكافأة هنا إنكار ما يلقاه المرء من ثواب أو عقاب من عند الله تعالى، بل المعنى أنه كل من لا يؤمن بظاهرة الجزاء والمكافأة في الدنيا، سواء لعدم إيمانه بتأثير الأعمال على الأخلاق، أو لعدم إيمانه بالله، فلا بد من فساد أخلاقه.

يعترض بعض الفلاسفة الحمقى بأن القيام بعمل طمعًا في المكافأة وخوفًا من العقاب ليس من الأخلاق الحسنة. الواقع أن هذه النظرية الحمقاء ليست من الفلاسفة، بل هي من القسس؛ ذلك أن كل الفلسفة التي كانت تُدرَّس في أوروبا في الماضي إنما كانت تُدرّس في مدارس القسيسين، إذ كانوا هم أصحاب تلك الكليات وأساتذتها، مما جعل الفلسفة الغربية تتشرب أمورًا كثيرة مطبوعة بطابع الدين المسيحي، وذلك كما نجد طابع الدين إلى حد كبير في العلوم الإسلامية التي كانت تُدرَّس في البداية؛ خذوا مثلا اللغة والشعر والتفسير، فتجدون فيها طابع العقائد الدينية واضحًا، ولذلك تسربت بعض الأخطاء إلى علومنا الإسلامية أيضا. إنما الفرق هو أن ديننا لم يتدخل في الفلسفة، لكن الدين الأوروبي تدخل فيها، وأن ديننا لم يتدخل في الطب، لكن الدين الأوروبي تدخل فيه أيضًا. أما اللغة العربية فلا بد من تسرب التأثير الديني فيها بشكل واضح، فمثلاً حين نجد صعوبة في شرح كلمة من القرآن الكريم ونراجع أحد القواميس نجد أن صاحبه يستدل بنفس الآية

التي وردت فيها تلك الكلمة التي نريد معرفة معناها، وهكذا ندور في حلقة مفرغة. وإذا وفّق الله أحدا منا فعليه أن ينـــزه القاموس العربي من هذا العيب الذي تسرب إليه بتأثير العقيدة، فمثل هذه الأمور لا تخدم القرآن، بل تظلمه. ذلك أن من اتّبع طريقا زائفا باطلا في البحث أغلق باب العلم. إن القرآن كتاب الله ﷻ، وعليهم أن يدركوا أن ما قال الله تعالى هو الصحيح، فإذا لم يجدوا في القواميس معنى لكلمة قرآنية فعليهم أن يبذلوا جهدهم في البحث والتحقيق وسوف يكشف الله عليهم طريقا للوصول إلى بُغْيتهم، ولكن ليس معقولاً أن يستدلوا بنفس الآية التي ورد فيها اللفظ الذي يبحثون عن معناه، ويُخضعوه للتفسير بدلاً من اللغة، مع أن اللغة هي التي ستساعدنا فيما إذا كان المعنى الذي أخذنا به صحيحا أم لا. ولو أنهم أمعنوا النظر أكثر بدلاً من التسرع هكذا لازدهرت اللغة ومعاجمها وانتشرت معارف القرآن أيضا أكثر. ولكنهم اتبعوا طريقا زائفا، حيث ذكروا في القواميس في بيان معنى كلمة قرآنية تفسيرَ مفسِّر سابق، وهكذا حالوا دون أن تكون اللغة خادمة للقرآن الكريم. وإنهم لم يرتكبوا هذا الخطأ في كلمة أو كلمتين، بل في كثير من الكلمات القرآنية، فلو نظرت في "لسان العرب" -وهو أكبر قاموس عربي- وجدت هذا العيب في عدد من مواضعه، فعندما يتناول صاحب "لسان العرب" كلمة قرآنية ويجد استعمالها خلافا للمعنى المعروف يأتي بمعناها من أحد التفاسير مستدلا بالآية نفسها، مع أن الواجب أن يرفض المعنى التفسيري باعتباره خلافا للُغة العرب، أو يؤكده بأمثلة من أقوالهم مستشهدًا على أن العرب قد استخدموا هذا اللفظ أو هذا التعبير، أما إيراد الآية نفسها دليلا على المعنى الذي يريده فهذا لا يدرأ الاعتراض، بل يزيده قوة. ولو أنهم تحرّوا الأمر أكثر لوجدوا حلولاً كثيرة، ولكنهم تسرعوا، فتسرب هذا العيب إلى المعاجم.

فلأن القسيسين كان لهم دور كبير في تعليم الفلسفة الأوروبية في الماضي، فأدخلوا فيها أمورا كثيرة لا تمتّ إليها بشيء، وذلك بقصد الطعن في الإسلام. لقد أعلن القرآن الكريم مرة بعد أخرى أن هناك جنةً ونارًا بعد الموت، فأثار القسيسون بحثًا عقيمًا باسم الفلسفة بأن العمل الذي يقوم به المرء خوفًا من العذاب أو طمعًا

في الثواب لا يمكن أن يسمى برًّا، إنما هو خُلُق مذموم. والحق أنه قول باطل تماما. إذا كان هذا مذمومًا فليس في الدنيا أخلاق حسنة أصلا. فهل هناك عمل لا يعمله المرء خوفًا أو طمعا؟ لو وضعتَ أمام هذا القسيس المعترض حفنة من مسحوق الفلفل الحار وقلتَ له أن يأكلها فهل سيأكلها؟ كلا، بل سيقول إنني لا أستطيع ذلك لأني أُصاب بالإسهال. فثبت أنه لا يأكلها خوفًا؛ فهل يُعتبر تصرفه هذا سيئةً؟ إذا كان تجنُّب عملٍ نتيجة الخوف أمرًا سيئا، فلماذا يوجد في الدنيا شتى القوانين والتعزيرات؟ ولماذا يقال مثلاً إن السارق يُعاقَب بكذا وكذا من العقوبات؟ إذا كانت هذه الفلسفة المسيحية سليمة فكل الحكومات التي سنّت هذه القوانين والعقوبات تخالف هذا المبدأ الخلقي المسيحي. هذا المبدأ لن يقوم في العالم إلا إذا أعلنت الحكومات أننا لن نعاقب أي سارق، إنما عليه أن يقلع عن السرقة بنفسه إذا أراد، وأننا لن نعاقب أي قاتل، بل عليه أن يكفّ عن القتل بنفسه إذا أراد. هل ترضى أي حكومة بهذا الاقتراح؟ الحق أن هؤلاء القسس قد سوّدوا وجوههم بأيديهم بالطعن في القرآن والإسلام، حيث قدّموا فلسفة لا تعمل بها أمريكا ولا فرنسا ولا ألمانيا ولا غيرها من البلدان الغربية، بل إن العمل بها في الدنيا محال. الحق أن الأستاذ المسيحي الذي يعلِّم في الكلية أن القيام بعمل خوفًا من عقاب أو طمعًا في ثواب خُلُقٌ مذموم وعمل سيئ، هو نفسه لا يعمل بهذا المبدأ، إذ لا يقوم بالتدريس إلا مقابل أجر. ثم إنه يغرِّم خادمه بغرامة إذا أخطأ في خدمته. فهل يغرِّمه لإفساد أخلاقه يا ترى؟ إذا كان التخويف من العقاب يُفسِد أخلاق المرء فلماذا يخوّف هذا الأستاذ خادمه من العقوبة؟ ولماذا يغرِّمه؟ إنه يغرِّمه لأنه يدرك كل الإدراك أن الناس ذوو درجات متفاوته من حيث الأخلاق؛ فبعضهم يتأثر بالعقاب، وبعضهم بالعطاء، وبعضهم يبلغ درجة التفاني في الحب والعشق فيعمل بغضّ النظر عن عقاب أو عطاء. فالدرجة الأولى في الأخلاق هي الخوف، والثانية هي الثواب، والثالثة هي أن المرء يُعمل فكره في فلسفة الخير وحكمتها، فيدرك قيمته الذاتية، فيعتاده، ويعمله حبًّا له ورغبة فيه، لا طمعًا في ثواب ولا خوفًا من

عقاب. وأكبر مراتب الأخلاق أن تعمل الخير تكميلاً للنفس تأسيًا بمثلٍ أعلى. وإهمالُ أيٍّ من هذه الأمور يدفع معظم الناس إلى السيئات.

فالحق أن هؤلاء القسس إنما جدعوا أنوفهم بتقديم هذه الفلسفة العقيمة عداءً للإسلام. كان المسلمون يتأثرون بكلامهم حين لم يكونوا مطّلعين على مكرهم وخداعهم، ولكن لما وصلت مطاعنهم إلى الذين يفهمون القرآن الكريم، فقد كشفوا خداعهم وفضحوهم تماما.

باختصار، لا يراد بالجزاء والمكافأة ما يكون في الآخرة فقط. فإذا تولّدَ في فرد أو قوم إحساسٌ بالجزاء والعقوبة -أعني أنهم أدركوا بأن الأخلاق الحسنة تساعد الأمة على التقدم، وأن الأخلاق الرذيلة تُفسدها وتهلكها، أو أن الأمم تُعاقَب على سيئاتها حتمًا، أو أن الله تعالى سيعاقب على السيئات ويكافئ على الصالحات يقينًا، سواء في الدنيا أو الآخرة، أو يكافئهم على أعمالهم الحسنة سواء في الدنيا أو في الآخرة- حالَ هذا الإحساس دون ارتكابهم السيئات يقينا. هذه حقيقة ثابتة جلية لا ينكرها إلا الذي يتعامى ويكابر.

إذن، فمن معاني قوله تعالى ﴿أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالدِّينِ﴾: أَخْبِرْني مَن الذي يقول أن لا جزاء ولا عقوبة في الدنيا! إن هذا القائل يمكن أن ينكر الله تعالى ولكن لا مناص له من الاعتراف أن بعض الأعمال تدفع الأمم أو الأفراد إلى الحضيض، وبعضها تساعدهم على التقدم. هذه حقيقة ثابتة مَن أنكرها تردى ووقع في المعاصي يقينًا.

المفهوم الثاني: أَخْبِرْني من الذي ينكر الطاعة، والمراد من الطاعة النظام والضبط، وليس الرق والعبودية. إن القرآن والإسلام عَدوّان للرق، بل إن الإسلام أول دين قد قضى على الرق في العالم، ولكن هذا موضوع منفصل يتعذر الخوض فيه الآن. يظن الناس خطأً أن القرآن يجيز الرق! سأضع القرآن أمام أي شخص، فليُخرجْ لي منه آية واحدة تجيز الرق إن استطاع. إني لم أجد أي آية كهذه، مع أني أَكثرُ قراءةً للقرآن الكريم من المعترض مئات المرات. إن ما يسمى رِقًّا لا يوجد في القرآن ولا

الحديث. إني أُقِرُّ أن الرقّ قد ظل رائجا بين المسلمين خطأً، ولكن لا يجوز الاعتراض على القرآن أو الإسلام بخطأ المسلمين. عندما كان الهندوس هنا في باكستان، كان المسلمون يذهبون إلى السينما لمشاهدة الأفلام، ويفعلون ذلك بعد ذهاب الهندوس إلى الهند أيضًا، وكانوا يقومون بالرقص والغناء، ولا يزالون يرقصون ويغنّون بعد ذهاب الهندوس من هنا، فلو شغّلت المذياع قليلاً لسماع الأخبار فتجده يذيع برامج هزلية دائما؛ إذ تسمع أصواتًا مزعجة وكلامًا سخيفا. كذلك لا تلتزم نساؤهم بالحجاب، ويتعاطون الخمر بكثرة، حتى أعلنت حكومة إقليم السند أننا لو فرضنا الحظر على شرب الخمر في شهر رمضان أصابتنا خسارة بليون روبية. فأولاً أقول: إذا تكبدت الحكومة خسارة بليون روبية نتيجة هذا الحظر فأيُّ ضير في ذلك؟ وثانيًا: إن ما يقلقني أكثر هو أن خسارة مليون روبية كل شهر في السند يعني أن أهلها يتعاطون الخمر شهريا بما قيمته خمسة ملايين روبية، أي ستين مليونًا سنويا. وسكان أقاليم باكستان الأخرى يزيدون عن سكان السند ١٢ ضعفًا، ولو قسنا باقي الأقاليم على السند لكان معنى ذلك أن مسلمي باكستان يشربون في السنة خمرًا بقيمة ٧٢٠ مليونًا. فلماذا هذا التصرف الأحمق؟ لا أفهم! ومع ذلك ليس الإسلام مسؤولاً عن هذا، لأنه ينهى عن شرب الخمر.

فالطاعة هنا لا تعني الرق والعبودية، وإنما الطاعة عند الإسلام هي النظام وضبط النفس، أي لا يحق لأحد أن يقدِّم الحرية الفردية على مصلحة الأُمة. وكل القوانين التي تسنّها الدول بشأن النقل والمرور والقطارات والجوازات والتجارات وغيرها، يخضع لها سكانها كلهم؛ إذ تعلن الدول أن كل مواطن حر بلا شك، ولكنه لا يمكن أن يتمتع بحرية تضرّ بالشعب. سوف نمنح الفرد الحرية التامة، ولكن حيثما عارضتْ مصلحتُه مصلحةَ الأمة نضع حدًا لحريته.

هذا هو القانون الذي تمخّض آخذًا هذا الشكلَ بعد خبرة طويلة وجدال وحروب وشد وجذب، ويعترف به كل العالم، ولا سيما العالم المتمدن، وقد أشار إليه القرآن الكريم قبل ١٤ قرنا في قوله تعالى ﴿أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالدِّينِ﴾.. أي أَخْبِرْني عمّن لا يؤمن بالنظام وضبط النفس. وها إني أخبرك أن مثل هذا الإنسان

لن ينال عزًّا ولن يتسبب في مجد قومه، بل سيقع في المنكرات والسيئات حتمًا، لأن الذي يخالف هذا المبدأ أو القانون لا يمكن أن يبقى متمسكا بالخير.

ما أروعَ المعنى الذي تُبيّنه هذه الآية! لا يوجد فيلسوف أوروبي واحد قد بيَّن في عشر مجلدات ما بيّنه القرآن في هذه الآية الوجيزة من موضوع أخلاق الأمم. إنها جملة موجزة ولكنها تنطوي على موضوع يمكن أن تؤلّف فيه المجلدات. يقول الله تعالى إن الذي ينكر مبدأ ضبط النفس أو النظام لا يمكن أن يبقى صالحا، لأن ما يقوله خطأ تماما وسيؤدي إلى الفساد والخراب. فمثلاً لقد سنّت الدولة عندنا قانونًا يحتّم المرور على يسار الطريق، ولكن الذي يقول: لماذا ألتزم بهذا القانون، سأسير في أي جهة شئتُ ما دام مسموحًا لي بالمرور في الطريق، فمصيره واضح، فإما أن يصطدم بسيارة ويجرح نفسه، أو يصطدم بالمارة عند كل خطوة ويسبب المشاكل للجميع.

الواقع أن من المحال أن يسود السلام في العالم بدون اتباع النظام. فقول المرء لماذا أتّبع القانون الفلاني، إنما هو طريق الفساد.

غير أن الحفاظ على النظام لا يعني أن يأخذ البعض القانون بأيديهم، ثم يضغطوا على الآخرين كما شاءوا. فقد قرأت في الجريدة الإنجليزية (civil) أن الناس أخذوا شخصا غير صائم في مدينة "راولبندي" أو "لايلبور" وسوَّدوا وجهه ومرّوا به في الأسواق. ولو احتج أحد على ذلك وقال ليس من حق الناس تنفيذ القانون بأيديهم، فهو مصيب في قوله، فقد جاء النبيَّ ﷺ صحابي وقال يا رسول الله، لو رأيتُ رجلا غير محرم مع زوجتي في حالة مشبوهة، فهل أقتله؟ قال ﷺ: لا. وكانت عقوبة الزاني حتى ذلك الوقت هي الرجم، فقال: يا رسول الله، ألا يأمر الإسلام بقتل الزاني؟ قال ﷺ: نعم. قال: ما دام الإسلام يأمر بقتله فلماذا لا أقتله بنفسي؟ قال ﷺ: كلا، إذا قتلتَه عوقبتَ بجريمة القتل. عليك أن تأخذه إلى القاضي وترفع قضيتك إليه، ولا يحق لك تطبيق القانون بيدك (البخاري، كتاب الطلاق).

فالقانون الذي سنّته الدولة لا بد من الرجوع وفقَه إلى القاضي، وإلا فلن يُرسى السلام والأمن، بل سينتشر الفساد والفوضى. وإذا كان القانون مِن صُنْع المجتمع

فيُرجع فيه إلى قاضي المجتمع، أو لجنة التحكيم المحلي، ولكن لا يحق لكل من هب ودبّ أن ينفِّذ القانون بيده ويعاقب المجرم. يظن المرء في حالات كثيرة جدا بأن جريمة المتهم ثابتة، بينما يرى القاضي العكس، ذلك أن الجريمة لا تثبت عند القانون إلا بشروط قاسية. لو كانت هذه الشروط لينة لعرَّض الناس كثيرا من الأبرياء للعقاب، ولكن القانون يضع لإثبات الجناية معايير هي أكثر صرامة مما يتصوره العامة، وذلك إنقاذًا للأبرياء. ولو مُنح العامةُ حق إنزال العقوبة لعاقبوا كثيرا من الأبرياء لقلّة خبرتهم. القانون ليس هدفه عقابَ الجاني فحسب، بل هدفه أيضا أن لا يحل العقاب بالبريء. العامة يريدون أن يعاقبوا مَن اشتبهوا فيه، ولكن روح القانون منصف؛ فهو يعاقب ولكن بعد أن تثبت الجريمة ثبوتا يؤدي إلى عقاب المجرم وتبرئة ساحة البريء.

ملخص القول أن الله تعالى قد أعلن بقوله ﴿أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالدِّينِ﴾ أن الذي ينكر ضبط النفس والنظام سيقع في الإثم حتمًا. يقول لي كثير من الناس إن فلانا قد ارتكب الخطأ الفلاني، فهل نترك الصلاة وراءه؟ فأقول لهم دائما: كلا، بل ارفعوا أمره إلى الجهة المعنيّة، ثم اعملوا بحكمها، ولا يحق لكم أن تحكموا بأنفسكم، إذ قد يكون بينكم وبينه عداوة فلا يكون رأيكم محايدًا عادلا. فمخالفة القانون شيء، أما إثبات مخالفته التي لا بد منها، والتي من دونها لا يمكن أن يستتب النظام على ما يرام، فشيء آخر.

وليكن معلوما أن الذي يتبع النظام إنما يتبعه إذا أيقنَ أن رقي الأمة يضمن رقي الفرد. فهناك نظريتان في العالم اليوم، تقول إحداهما إن الأمة تتكون من الأفراد، ورقي الفرد هو الأصل. ويرى أصحاب هذه النظرية أن النظام ليس ضروريا، وإذا حال النظام دون رقي الفرد فمن حق الأفراد أن يخالفوه. أما النظرية الثانية فيقول أنصارها إن رقي الأمة يضمن رقي الفرد، ولا شك أن الحفاظ على حرية الفرد هو مسؤولية الأمة، ولكن لا يحق للفرد أن يخالف قانون الأمة إذا وجده خلافا لمصالحه. إذا وجد أن القانون الذي سنّته الأمة يعيق رقي الفرد فله الحق أن يعمل على إلغائه باتّباع الطرق المشروعة، ولكن لا يحق له أن يخالفه من عند نفسه. هذا

هو مفهوم قوله تعالى ﴿أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالدِّينِ﴾.. أي أن الذي يقدِّم مصالح الفرد على مصالح الأُمّة لا بد أن يقع في إثم الأنانية، وتحقيقًا لمصلحته الشخصية يمارس أعمالا تدفع الأمة إلى كثير من الخطايا، فينفتح باب المعاصي على مصراعيه.

المفهوم الثالث: ومن معاني الدين الغلبةُ، ولكن لا يراد مِن مكذِّبِ الدين مُنكِرَ الغلبة فحسب، إنما منكر غلبة الحق والإنصاف والصالحات، ذلك أنه لا يخلو البلد من غالب ومغلوب، فإذا كان النظام سائدًا كانت الحكومة هي الغالبة، وإلا كانت الغلبة للُّصُوص وقطاع الطرق؛ وعليه فقوله تعالى ﴿أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالدِّينِ﴾ يعني: أَخْبِرْني من الذي لا يؤمن أن العاقبة تكون للأعمال الصالحة، لأنه سيقع في السيئات حتمًا، إذ إن قوله يماثل المثل البنجابي عندنا بأن هذه الدنيا حلوة لذيذة، فكيف نترك لذاتها ومُتعها من أجل الآخرة! فمن ذا الذي قد رأى الآخرة؟ إذ لا رادعَ له من السيئات، وليس عنده عاطفة تجذبه من مراتع المنكرات. إنه يفكر أن عليه أن يعمل لمصلحته أو مصلحة قومه في كل حال ولو بطريق غير مشروع، ولأن الطريق المشروع يتطلب منه تضحية فيتّبع طرق الإثم والمعصية في معظم الأحيان. أما الذي يوقن أن الغلبة للخير في نهاية المطاف فلا بد أن يتجنب اتباع الطرق غير المشروعة قائلا: لا ضير لو تكبدتُ خسارة مؤقتة بدلاً من أُلحق بنفسي ضررًا أبديًّا من أجل مصلحة مؤقتة؟

وليكن معلوما أن فكرة انتصار الخير في النهاية لا يمكن أن تخطر ببال أحد أبدًا من دون أن يوقن بيوم القيامة. إن الذي لا يؤمن بالآخرة لا يمكن أن يؤمن أن العاقبة للخير. فتجد الفلاسفة الأوروبيين مثلاً يركّزون كثيرًا على قولهم بأن الخير يجب أن يعمله المرء من أجل الخير فقط، وهذا يعني بتعبير آخر أن الغلبة للخير في النهاية؛ ولكن لن تجد دولة أوروبية واحدة تبني سياستها على هذا المبدأ، إنما تتمحور سياستهم على غلبة شعبهم، فيلجأون لتحقيق غلبتهم إلى طرق غير مشروعة كالغش والخداع. يقول المثل الإنجليزي الشهير: (End justifies the means).. أي الغاية تبرر الوسيلة، بمعنى أنه إذا كان الهدف خيرًا فلا بأس لتحقيقه

من اتباع الطرق غير المشروعة، مهما كانت شنيعة. لماذا نشأت عندهم هذه النظرية؟ إنما منشؤها أنه ليس عندهم إيمان بالحياة الآخرة. لا شك أنهم يقولون إن الأصل هو الخير، ويجب أن يُفعَل الخير من أجل الخير فقط، ولكنهم لما رأوا الواقع ووجدوا أن فاعل الخير يخسر أحيانا، اخترعوا هذه النظرية وقالوا لا حرج لرفعِ صرح الخير على أعمدة من الشرّ، لأن المقصود الحقيقي هو إرساء الخير. أما الذي يؤمن بالحياة الآخرة فلا يريد أن يرى عاقبة أعماله بشكل تام في هذه الدنيا، بل يقول لا بأس لو تكبدت أنا أو أمتي خسارة في سبيل التمسك بالخير، لأن هذه الخسارة سوف تُعوَّضُ في الآخرة، ومثل هذا الإنسان لن يتبع الطرق السيئة لإرساء الخير، بل لا يرى داعيًا لذلك؛ إذ يؤمن أن هذه الدنيا حلقة من حلقات الحياة التي ستستمرّ بعد الممات، ويوقن أن الخير سيغلب حتمًا ولو في الآخرة. ومن أجل ذلك تجد أنه لم يتمسك أحد بالمستوى الأعلى للخير إلا الذين يعبدون الله تعالى. إن الفلاسفة الأوروبيين يركزون كثيرا على التحلي بالأخلاق الفاضلة، وقد كتبوا عشرات الأمور في كتبهم بهذا الشأن، فلو قرأتَ ما كتبه هكسلي، وسبنسر، وهيجل، وكانْت، خُيّل لك أنهم أكثرُ خيرًا ممن يؤمنون بالدين، ولكنك إذا فحصت سيرتهم الذاتية لم تجدهم يساوون غِلْمانَ غلمانِ الأنبياء؛ وليس ذلك إلا لأنهم يقولون ما لا يفعلون؛ إذ يؤمنون أنه لا بد لنا من تحقيق مصالحنا بأي طريقة كانت. وعندما يرون تعارضًا صارخًا بين معايير الخير وبين مصالحهم ينسون كل ما قالوا من قبل، ويقولون لا بد لنا الآن من تحقيق أهدافنا بأي صورة ممكنة. أما الأنبياء فلا نجد موقفهم ولا عملهم يتغير مهما واجهوا من ظروف خطرة ومصاعب جمّة.

عندما أعلن جاليليو نظريته القائلة بأن الشمس لا تدور حول الأرض بل الأرض تدور حول الشمس، كفَّره القسس قائلين: لقد ورد في التوراة أن الله تعالى خلق الإنسان على صورته، وما دام الإنسان المخلوق على صورته ﷻ يعيش على الأرض فلا بد أن تكون هي أفضل من الشمس، ولكن جاليليو قد كفر كفرًا بَوَاحًا بقوله هذا. فصبّوا عليه صنوف الأذى، فصبر عليها مدة من الزمن، ولكنه اضطر في

النهاية ليعلن قائلا: الآن قد فهمتُ الأمر على حقيقته، الواقع أن الشيطان أغواني عن ديني، فرأيت الأرض تدور حول الشمس، وهذا خطأ، والحق أن الشمس هي التي تدور حول الأرض، لأن هذا ما يقوله ديننا، فأتوب عن عقيدتي الجديدة.

كم كان هذا الابتلاء بسيطا، ومع ذلك انظروا إلى البون الشاسع بين ادعاء جاليليو وبين تمسكه بالصدق والخير! وهذا هو حال فلاسفة الغرب المعاصرين؛ إنهم يحثّون الآخرين على التمسك بالخير في كتبهم، ولكن إذا لم تتفق مصالحهم الشخصية أو مصالح أمتهم أو حروبها مع الخير، تناسوا فلسفتهم تماما وكذبوا بلا حدود. أما هذا النبي الأمي المبعوث في واد غير ذي زرع، والذي لم يكد يوقّع إمضاءه، فما كانت دعواه بسيطة كدوران الأرض حول الشمس أو العكس، بل إنه أعلن وحدانية الله تعالى خلافًا لعقائد قومه وبلده وطقوسهم وعاداتهم، وعندما عارضه قومه ظل ثابتًا على موقفه غير خائف ولا وجل. ولما طالت المواجهة فكّر زعماء قومه أن يضغطوا على عمه الذي له نفوذ عليه ليقول له أنه سيتخلى عنه لو استمر في تصرفاته. فقالوا لعمه لقد طالت الحرب التي أثارها ابن أخيك بيننا وبينه، فجئناك باقتراح لإنهائها. يجب أن نرى ما هو سبب هذه الحرب، فإن كان عقله قد اختلّ فيجب معالجته وسوف نتحمل نفقات علاجه، وإن كان يرغب في المال فنجمع كل ما يملك أثرياؤنا وفقراؤنا ونعطيه ثُلثه، وإن كان يرغب في أن يتزوج فتاة من أسرة عريقة فنعرض عليه فتيات رؤسائنا فليتزوج منهن من شاء، وإن كان يرغب في الحكم فنحن مستعدون لقبول سيادته.

هل هناك اقتراح أكثر سخاء من هذا من الناحية المادية؟ وهل كان بوسع عمه أن يحميه من القوم في حالة رفضه لهذا الاقتراح؟ ثم إنهم لم يطالبوا أبا طالب أن يأمر ابن أخيه أن يتخلى عن دعواه، إنما رجوه أن لا يذكر آلهتهم بسوء.

ثم قالوا لأبي طالب: إنك من زعمائنا ونحن نحترمك ونبجلك، ولذلك لم نتعرض لابن أخيك حتى الآن، فاعرضْ مطلبنا على ابن أخيك، وحاولْ إقناعه، أما إذا لم تستطع إقناعه و لم تستعدّ للتخلي عنه، فنعتبر ذلك إساءة منك إلى قومك. لقد عرضنا عليك أكثر ما نستطيع، والآن من واجبك إقناع ابن أخيك أو التخلي

عنه، وإلا فسوف نضطر لقطع أية صلة معك (السيرة النبوية لابن هشام: مباداة رسول الله ﷺ قومه، وما كان منهم).

هل هناك اقتراح أكثر عدلاً من هذا من الناحية المادية؟ لا أظن أن في الدنيا نظيره.

اعتبر أبو طالب كلامهم معقولا، وظن أنهم قد قدّموا أكبر تضحية ممكنة لهم. فلما رجعوا من عنده دعا ابنَ أخيه الأُمّيَّ المقيمَ في بلد غير ذي زرع والمترعرعَ في بلد غير متحضر، وقال له: يا ابن أخي، تعرف مكانتي عند القوم؛ لقد جاءوني اليوم وهددوني قائلين بأنهم لم يتعرضوا لك ويؤذوك من أجلي -كانوا يؤذون النبي ﷺ ولكن قولهم يعني أنهم لم يصبّوا عليه الأذى الذي يقضون به عليه- ولأن الأمر قد تفاقم الآن فيريدون إنهاءه بأي ثمن، وقد عرضوا عليّ اقتراحات لم أستطع أن أجيبهم عليها. لقد قالوا لي: يمكن لابن أخيك أن يقبل من هذه العروض ما شاء، أما إذا رفضها فعليك أن تتخلى عنه لأن تصرفه غير معقول ويدل على عناده ومكابرته، وإذا لم تتخلّ عنه فسوف نضطر للخروج عن سيادتك.

لقد قال أبو طالب هذا الكلام وهو يفكر أن القوم الذي خدمه طول حياته يريد التخلي عنه الآن، فاغرورقت عيناه. فلما رآه النبي ﷺ سالت الدموع من عينيه لفرط حبّه له وعلاقته القديمة معه، وقال: يا عم، إني لا أريد أن تتخلى عن قومك من أجلي، بل عليك إرضاء قومك. أما عروضهم فاعلم أني لم أدْعُهم إلى ما دعوتهم إليه طمعًا في منفعة مادية وإنما باعتباره صدقًا وحقًّا، فعروضهم لا تعنيني شيئًا، ووالله لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري لن أتخلى عن الحق الذي أتاني من الله تعالى والذي أمرني بتبليغه. ولكني لا أريد أن تضحّي من أجلي، بل أرجوك أن تنضم إليهم واترك أمري بيد الله.

كان أبو طالب يتمتع بمكانة كبيرة بين القوم إذ كان سيدا لهم، وكان من الصعب أن يترك السيادة، ولكن كلام النبي ﷺ قد وقع في قلبه وقعًا عظيمًا، فأدرك أن ما يعرضه محمد على القوم لا زيف فيه، وليس من بنات أفكاره ولا من مكائده، إنما هو حق خالص وقد أثّر في قلبه تأثيرا لا تقدر أية قوة في العالم على

ردّه عنه، بل إنه سيرضى بالموت في سبيله. إن الجالس بالقرب من النار يشعر بدفئها، كذلك قد أحس قلب أبي طالب بدفء شعلة نور إيمان النبي ﷺ، فقال: يا ابن أخي، اذهبْ وواصِلْ مهمتك، فإني لن أتخلى عنك ولو تركني قومي.

هل يوجد بين فلاسفة الدنيا مثال كهذا مع كل هذه الظروف والملابسات؟ إني لا أريد مثالاً لفيلسوف قُتل مثلا، بل أريد مثالا لفيلسوف عُرضت عليه مثل هذه العروض في مثل هذه الظروف ثم ظل متمسكا بموقفه. كلا، لن تجدوا مثالاً كهذا بين فلاسفة الغرب، بينما تجدون آلافًا مثله بين أهل الإسلام، وليس في حياة النبي ﷺ فحسب، بل تجدونها في حياة أتباعه وخدامه ببركته ﷺ. قَتل أعرابي رجلا في عهد سيدنا عمر أو سيدنا عثمان -رضي الله عنهما- فرُفعت القضية إلى القضاء، فأدينَ وصدر الحكم بقتله. فقال للقاضي: لا شك أنني أستحق القتل، ولكن عندي أموال لبعض اليتامى، ولو متُّ ماتوا أيضا، وقد دفنتُ مالهم في مكان لا يعلمه غيري، فأمهلْني يومين أو ثلاثة حتى أذهب وأردّ إليهم أمانتهم ثم أعود. قال القاضي: مَن يضمنك، فلعلك لا تعود؟ لقد طالبَه بمن يضمن له عودته لأن الشعوب التي تعيش الفلوات والبراري يصعب القبض على المجرم فيها ثانيةً. فنظر الأعرابي يمنة ويسرة ثم قال مشيرا إلى أبي ذر الغفاري رضي الله عنه: هذا الرجل يضمنني. فسأله القاضي: هل تضمنه؟ قال: نعم. فأُطلق سراح البدوي فذهب. وظل القوم ينتظرون عودته في اليوم الثالث حتى حان العصر، ولم يبق إلى مغيب الشمس إلا ساعة أو ساعتان، فانتظروا أيضًا فلم يرجع، فاستبد بهم الخوف على حياة هذا الصحابي العظيم، فقالوا له: من هو هذا الشخص الذي ضمنتَه؟ لقد أوشك الموعد على الانتهاء ولكنه لم يعد ولا نعرف عنه شيئا. فقال الصحابي: أنا لا أعرفه. قالوا: فلماذا ضمنت مجهولا؟ قال: لقد نظر إلى الجميع واختارني من بينهم ضامنا له، فلمْ تتحمل غيرتي ألا أثق بمسلم يثق بي دون أية معرفة بيني وبينه، لقد أحسن بي الظن، فلماذا لا أحسن به الظن؟ وظل الميعاد يقترب وقلقُ الناس يزيد حتى رأوا الغبار من بعيد، فوجدوا فارسًا يحثّ فرسه على العَدْو، فلما وصل إليهم سقط حصانه ومات في المكان، فإذا هو الأعرابي نفسه الذي ينتظرونه. فقال: ها قد حضرت بعد رد

الأمانات إلى أهلها، فاقتلوني الآن. فلما رأى ورثة القتيل مدى إيمانه ووفائه بالعهد أعلنوا العفو عنه، ذلك أن ورثة القتيل يحق لهم العفو عن القاتل إذا شاءوا.

وليس هذا هو المثال الوحيد في تاريخ الإسلام، بل هناك آلاف الأمثلة التي لا سياسة فيها ولا دبلوماسية كالتي نجدها عند الأمم الغربية، إنما هي أمثلة بسيطة واضحة تدل على قيمة العدل والتضحية والاستقامة عند المسلمين، وتبين كيف أنهم فعلوا هذه الفضائل دونما خوف.

ولكن السؤال الذي يفرض نفسه هنا هو: لماذا عملوا هكذا؟ والجواب: إنما فعلوا ذلك لإدراكهم أنهم لو ماتوا هنا فسوف يُجزون على هذه الصالحات في الآخرة. فثبت أن الخير الكامل لا يمكن بدون اليقين بالآخرة. إن الإيمان بالآخرة هو الذي يكشف للمرء أن الغلبة للخير في النهاية.

المفهوم الرابع: ومن معاني الدين: السلطان والمُلك والحُكم، وليس المراد منه الحكومة أو الملكية الدستورية المعاصرة التي تدار بالبرلمانات، بل المراد الحكومة أو الملكية التي عندها السلطة. كما لا يراد هنا الحكومات التي تدار بالعصا، والتي تقهر الناس على الطاعة بالقوة. فكلمة "السلطان" قد بينتْ أنه ليس المراد هنا الحكومات التي يديرها أناس هم ملوكٌ بالاسم فقط، وليس عملهم إلا التوقيع. أما كلمة "الحكم" فدلت على أنه ليس المراد الحكومات التي تدار بقوة العصا. فمن خصائص اللغة العربية أن كل كلمة فيها تنطوي على دلالة حكيمة. خذوا مثلا كلمة المُلك التي تُستخدم عندنا كثيرا، فإذا سألت أحدًا عن معناها قال: المنطقة التي نسكنها. ولكن العرب أو الذين عندهم معرفة بالعربية يعنون به ما تدل عليه مجموعةُ حروف "م ل ك"، ذلك أن من مزايا العربية أنها تتكون من حروف، وليس قصدي بذلك أن اللغات الأخرى لا تتكون من حروف، بل أعني أن الحروف فيها أمرٌ عرضيٌ، أما العربية فكل حرف من حروفها ينطوي على معنى مستقل، ثم إن كل مجموعة حروف فيها تدل على معنى خاص؛ وبتعبير آخر إن النسبة بين العربية وغيرها من اللغات كنسبة اللغات الأخرى إلى اللغة الصينية، فكل جملة في الصينية تُعتبر حرفًا،

ولأداء مفهوم ما تُستعمل جُملٌ بعينها، فنقول مثلا: ائت بالحصان، وهي جملةٌ مستقلة، ويمكن أن نحدث فيها شيئا من التغيير عند الحاجة، فنقول مثلاً: أتى بالحصان، أو أتَوْا بالحصان، أو أتيتُ بالحصان، فغيرنا فيها الفعل فقط، أما في الصينية فإن جملة "ائت بالحصان" ستُعتبر حرفا مستقلا، وبتعبير آخر إن الجملة فيها تقوم مقام اللفظ، ولذلك نجد أن عدد حروف الهجاء في العربية هي ٢٨، أما الصينية فحروف الهجاء تبلغ الآلاف؛ فما داموا يصوغون جملة واحدة بحرف واحد فلا بد أن تبلغ حروف لغتهم آلافًا. فالفرق بين العربية والصينية أن الجملة في الصينية تصبح حرفا، أما العربية فالحرف يعمل عمل الجملة. ففي العربية ليست الكلمة فقط تكون ذات معنى بل إن الحرف أيضًا يعطي معنى معينا. فالمفهوم الذي يوجد في لفظ المُلك ليس نتاج اجتماع حروف "م ل ك" معًا، بل إن الميم له معنى خاص واللام له معنى خاص والكاف له معنى خاص، فإذا اجتمعت هذه الحروف في كلمة -بأي ترتيب- دلت على مفهوم معين دائمًا. والتدبر في الكلمات المركّبة من حروف "م ل ك" يكشف أنها تدل على القوة والقدرة، مثل المُلك والمَلِك والمَلَك، ولو غيّرت ترتيب هذه الحروف صارت كَلَمَ: أي جَرَحَ، ولكَمَ: أي ضرَبَ بقبضة اليد في وجه الآخر، وكل هذه الكلمات تشمل مفهوم القوة والقدرة. وهذا موضوع شيّق رائع، وقد استنتجتُ من خلاله آلافَ المفاهيم من كلمات القرآن الكريم والحديث الشريف، ولكن من المؤسف أن هذا العلم قد اندرس بين العرب في الزمن الأخير، وقد ألقى سيدنا المسيح الموعود عليه السلام الضوء ثانيةً في كتبه التي أثبتَ فيها أن العربية هي أم الألسنة، حيث أضاء لنا الطريق الذي استنارت به عقولنا أيما استنارة. وقد كشف الله عليَّ مِن خلاله آلاف المفاهيم والمواضيع، والتي إذا سمعها العرب ذهلوا وقالوا: مِن أين استنتجتَها؟ إني لا أعني أن المسيح الموعود عليه السلام هو مؤسس هذا العلم، وإنما أقول إنه أتمَّه وأكملَه. لقد وُضع أساسه في بداية الإسلام، حيث ذكَره العلامة السكاكي في كتابه "مفتاح العلوم"، وابن سيده في "المخصص"، وابن جنّي والثعالبي وغيرهما أيضا، ولكنهم لم يُكمِلوه، أما المسيح الموعود عليه السلام فقد وسَّعه وأكملَه في العصر الحاضر.

أما لفظ الحُكم -المركَّب من حروف "ح ك م"- فلا يدل على مجرد استخدام القوة فقط، بل يدل أيضا أن وراء استخدامها سببًا معقولا، ومنه قد اشتُقّت كلمة الحكمة التي تعني فلسفة الشيء؛ إذنْ فلفظ الحُكم يدل على أن ما تؤمر به ليس عبثًا، بل وراءه هدف أو فائدة. ولا يمكن استخدام هذا اللفظ إلا مع هذا الشرط، وإلا فكان استخدامه خطأ.

إذن، فكلمة السلطان والمُلك والحُكم هنا قد بينت معًا أن الحديث هنا ليس عن الملكية الدستورية التي تكون بالاسم فقط، ولا تمتلك أي سلطة ولا قوة؛ إذ يؤتى بأوراق القرارات إلى المِلك كي يوقع عليها ويرجعها، وإذا قيل للوزراء ما الفائدة من مَلِكٍ لا سلطة له، قالوا: نقوم بهذه المهزلة لإرضاء العامة الذين يريدون أن يكون لهم مِلكٌ يوالونه، لأن هناك كثيرا من الحمقى يقولون لا نقبل قرار البرلمان، وإنما نقبل ما يقوله مِلكُنا، ولتهدئتهم جعلناه مِلكًا بدون قوة ولا سلطة، فهو كالدمية التي تلعب بها البنات. وعلى النقيض، نجد في الدنيا ملوكًا يأمرون بقتل فلان وحرق فلان وإعدام فلان، وإذا سئلوا عن سبب ذلك قالوا: هذا هو قرارنا وكفى.

الحق أنه ما دمنا نؤمن أن العربية لغة الوحي، فلا بد لنا من التسليم أيضا بأن الدوافع العاملة وراءها هي أيضا إلهامية، وعليه فإن مفهوم الحكومة عند الإسلام يتولد بتركيب هذه الكلمات الثلاث: السلطان والمُلك والحُكم. فمن القواعد المتّبعة في المعاجم أنهم إذا وضعوا عند شرح مفردةٍ ما واو العطف بين معانيها المذكورة كان مرادهم أن معناها يكتمل بالجمع بينها كلها، ولا يقول المعجم أن الدين معناه السلطان أو الملك أو الحكم، بل يقول معناه السلطان والملك والحكم، أي أن كل هذه المعاني الثلاثة معًا تؤدي مفهوم الدين بشكل كامل سليم.

فلفظ السلطان قد وضّح أن الحديث هنا ليس المراد عن حكومة شكلية فحسب، ولفظ الحُكم أوضح أن أوامر هذه الحكومة لا تكون بلا سبب وحكمة، بل يكون وراء كل أمر من أوامرها سبب معقول وحكمة بالغة ودافع قوي، ولفظ المُلك بيّن أن هذه الحكومة ذات قوة عظيمة. إذن، فلفظ السلطان أشار إلى عمقها،

ولفظ المُلك إلى سعتها، ولفظ الحكم إلى معقوليتها، إذ لا تخلو أوامرها من حكمة وغاية، وليس فيها جبر وإكراه، وفيها منافع للناس.

ما أروعَه من تعريف للحكومة قد بينه القرآن الكريم! وما أعظمَها من حكومة ترسمها هذه الآية!

رُبَّ قائلٍ يقول هنا: أين مثل هذه الحكومة في العالم؟ فنجيبه: لو قامت مثل هذه الحكومة في الدنيا ألا ترى أنها تكون أفضل من أية حكومة كانت؟ فهي واسعة النطاق، عميقة الجذور، حكيمة الأوامر، إذ تأمر بكل ما هو ضروري ومتّسم بالحكمة والمعقولية، وليس في أوامرها إكراه ولا قهر، بل فيها نفع كبير للناس. الحق أنه لو عُرضت حكومة كهذه على الناس فلن ينكرها إلا مجنون أو معاند؛ ومن أجل ذلك يقول الله تعالى ﴿أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالدِّينِ﴾.. أي أَخْبِرْني من الذي ينكر مثل هذه الحكومة. يمكن أن لا يرضى أحد بمجرد الحكومة التي تمتلك السلطة فقط، أما إذا توفرت هذه الميزات في حكومة فلن يرفضها أحد، ومَن رفضها فذلك الذي يدُعُّ اليتيم.. أي لا بد أن يكون من الذين لا دين لهم ولا أخلاق. أما الذي يرضى بهذه الحكومة فلا بد أن يكون ذا خلق عظيم ويكون له سيطرة تامة على نفسه وأعماله.

وهذه هي الحكومة الإلهية في المصطلح الإسلامي. ولكن لا أقصد من ذلك تلك الحكومة الإلهية التي يثيرون الضجة من أجلها في هذه الأيام. ومَثل الداعين إليها كمثل أطفال بلادنا يلعبون لعبة يركب فيها أحدهم ظهر الآخر مقلوبا، فيناديه مَن تحته: انزلْ لأركب، فقد جاء دوري الآن. هذا هو حال المطالبين بالحكومة الإلهية في عصرنا هذا، إذ لا يريدون الحكومة الإلهية حقًا، إنما يتنافسون على الشهرة والمناصب والوزارات. إن الحكومة الإلهية إنما يقيمها الله لا العباد. إنما يقدِر على تأسيسها مَن يعلن أني جئت من عند الله تعالى لإرساء الحكومة الإلهية في العالم. ثم إن الحكومة الإلهية لا تعرف الحدود، فإذا قامت، قامت في العالم كله، ومن أجل ذلك لا أزال أكرر في محاضراتي أن الدستور الإسلامي لا يمكن تنفيذه في باكستان حاليا، ولكن كلما قلت ذلك أثار أصحاب الجرائد ضجة بأن هذا

يقول كلاما مخالفا للشريعة مع كونه رجل دين. والحق أني لم أقل أبدًا أن شريعة الإسلام لا يمكن تطبيقها في باكستان، إنما أقول إن الدستور الإسلامي لا يمكن تطبيقه حاليا. وهناك فرق بين الدستور الإسلامي وبين الشريعة الإسلامية. إن الدستور الإسلامي يتعلق بالخلافة؛ التي تعني أن يصبح مسلمو العالم كلهم تابعين لها. والسؤال الذي يطرح نفسه هنا: هل تصبح البلاد الإسلامية -العربية منها وغير العربية- تابعةً لباكستان؟ هل تصبح فلسطين تابعة لها، أم هل تصبح إندونيسيا تابعة لها؟ هذا محال؛ إذ لا خلافة بين المسلمين اليوم. ولما كان من المحال أن يكونوا تابعين لباكستان، فلا يمكن تطبيق الدستور الإسلامي فيها. نعم، يمكن تطبيق الشريعة فيها في كل آن. الحق أن الحكومة الإلهية إنما هي في السماء، وليس في الأرض إلا ظِلّها. وقد عدَّ الله تعالى في القرآن الكريم كلَّ حرب على هذه الحكومة حربًا عليه ﷻ، وكلَّ عدوٍّ لها عدوًّا له، ومَن حاربها حارب الله تعالى. فأنَّى لإنسان تأسيس حكومة كهذه؟

إن ما أعارضه هو أن يقول المسلمون إنهم سيطبّقون دستور الإسلام، لأن دستوره لا يطبَّق من دون الخلافة. إن دستور الإسلام عبارة عن مبادئ معينة ذات صلة وثيقة بالخلافة، ولكن المسلمين لا يؤمنون بالخلافة بينهم الآن، وهذه الخلافة كلما قامت كانت روحانية؛ فمثلا إني أعتبر نفسي خليفة، ولكن خلافتي ليست دنيوية، ثم إني لا أقول إنني قد أصبحت خليفة بنفسي، إنما دعواي أن الله هو الذي جعلني خليفة، والبديهي أن الله يتولى عقابي لو كنت كاذبا في دعواي، ولو كنت صادقا فلن تضرني معارضة الناس شيئا.

باختصار، إن الحكومة الإلهية لا يمكن أن تتأسس في الدنيا من دون نظام الخلافة، ولكنها لو قامت فليست هناك حكومة هي أفضل منها. وإلى ذلك قد أشار الله تعالى هنا وقال: أرأيت الذي ينكر الحكومة الإلهية؟ لا جرم أن مثل هذا الإنسان لن يعيش متخلقا بأخلاق حميدة، وإنما يعيش في الرذائل أسيرًا لمشاعره الأنانية.

لا شك أن الإيمان الكامل بوجود حكومة الله في الدنيا عقيدة هامة، لكنها لا تتولد بالكلمات والخطب، إنما تتولد من داخل الإنسان. فما هو معنى قيام الحكومة الإلهية يا ترى؟ أتظن أن المسيحيين لا يؤمنون بالله تعالى، أو أن اليهود لا يؤمنون به سبحانه؟ إنما المراد من الحكومة الإلهية إيمان المرء بأن الله تعالى هو المتصرف في الكون كله تصرفا كاملا؛ أي أن لا يقرّ بوجود الله تعالى بلسانه فقط، بل يؤمن أيضا أنه هو الفعّال المتصرف في كل ذرة من الكون.

غير أن هذا لا يعني أيضا ما يفهمه جهلاء المسلمين من لفظ القدر الإلهي، إذ ينسبون إلى الله تعالى سرقة السارق وفسق الفاسق وقتل القاتل. هذه سخرية شنيعة واستهزاء بشعٌ بأحكام الله تعالى. فما داموا لا ينسبون إلى الناس من الأعمال إلا ما يليق بمكانتهم، فكيف ينسبون إلى الله تعالى هذه المنكرات والقبائح؟ فمثلا إذا كان هناك ملِكٌ مقتدر يحكم البلد، وقلنا إنه يدير أمور بلده كلها، فإنما نعني بذلك أنه يتولى كل الأمور المتعلقة بتقدم بلده وسد حاجات جيوشه، فلو اعترض أحد على قولنا هذا قائلا: "كيف تقول إن الملِك يدير البلاد؟! هذا كذب، فالكنّاس هو الذي يكنس المراحيض لا الملِكُ"، فلا بد أن يضحك عليه الجميع ويعتبروه مجنونا. كذلك إذا قلنا إن الله تعالى خالق السماوات والأرض وهو مدبر الكون، فكيف ساغ لأحد أن يفهم من ذلك أنه تعالى هو الذي يدفع السارق ليسرق، والفاسق ليفسق، والظالم ليظلم، والخائن ليخون؟ هذه وقاحة ما بعدها وقاحة. هذا ليس من القدر الإلهي في شيء، إنما هو منتهى الكفر والإلحاد. إن هؤلاء الحمقى لا يفكرون أن الله تعالى إذا أراد مساعدة أحد في أعماله فإنما سيساعده على ترك الكفر لا على نشره، وعلى الإيمان لا إلى الإلحاد، وعلى ترك السرقة لا ارتكابها. فمتى يحث الشريفُ على السرقة أو القتل أو الخيانة؟ لو نُسبت هذه الأعمال إلى هؤلاء الذين ينسبونها إلى الله تعالى باسم القدر لاعتبروه سُبّةً ولتميّزوا غيظًا، ومع ذلك يقولون أن خالق الكون ومنبع الخير كله ﷻ هو الذي يدفع السارق ليسرق والخادع ليخدع، وهم يظنون أنهم مسلمون، بل يزعمون أن هذا ما يعلّمه القرآن الكريم، والعياذ بالله. انظرْ إلى مدى تردِّي المسلمين وانحرافهم عن الدين؛ حيث ينسبون هذه العقيدة

السخيفة الباطلة إلى هذا الكتاب المقدَّس المنـــزّه عن العيب، وهم يحسبون أنهم مسلمون. إنهم يقرأون في القرآن أن الله تعالى يعلن صراحة أنه لو أراد جمع الناس على أمرٍ بالجبر والإكراه لجمَعهم على عقيدة التوحيد، ثم يقرأون على الناس أحاديث تقول: قد كتب الله تعالى ما هو كائن في الدنيا وقد جفّ به القلم (مسند أحمد، مسند عبد الله بن العباس)، ومع ذلك لا يفكِّرون كيف ينسبون إلى القرآن والحديث ما يتنافى مع ألوهية الله تعالى. إن نسبة هذه العقيدة المخالفة لتعاليم الإسلام والقرآن إلى الله تعالى باسم القدر الإلهي عملٌ شنيع لا يتحمله مؤمن عاقل غيور. ليس هناك قدر إلهي كهذا أبدا. يمكن أن يُعزَى هذا القدر إلى اللصوص، لا إلى ربِّنا القدوس. إن قدر ربنا القدوس يعمل لتطهير العالم لا لتنجيسه.

عندما نقول –نحن المسلمين الأحمديين– أن هذا مكتوب في قدر الله تعالى، فلا نعني به ما يعنيه عامة المسلمين، بل نعني أن الله تعالى مالك يوم الدين، أي هو الذي يُظهِر نتائج أعمال الناس كلها. الواقع أن الله تعالى لا يجلس على عرشه عاطلا، فلا يمكن أن يسرق سارق فيصمت الله عليه، بل إنه يظهر نتائج كل جرم وفعل يرتكبه المرء، عاجلا أو آجلا، بشكل أو بآخر، فلذلك يقال إنّ عصا الله لا تُرى، لكن إذا وقعت على أحد وقعت بقسوة. فالقدر الإلهي إنما يعني أن الله تعالى لا يصمت على أفعالنا، بل يرتب النتائج عليها كلها، أما الذين يظنون أن الله تعالى جالس صامتًا لا يتدخل في أمور العالم، فلا أثر للإيمان في أعمالهم وأفكارهم. يظنون أن ما قال الله لنا بأنكم إذا فعلتم كذا فسوف أفعل كذا، إنما هو كلام فارغ –والعياذ بالله– فإنه لا يتدخل في أعمالنا مطلقا، وإنما يتفرج ويضحك علينا جالسًا على العرش! ولكننا لا نؤمن بمثل هذا الإله، بل نؤمن أن الله تعالى يتدخل في أمور أهل الدنيا ولا يزال يرتب النتائج الحسنة والسيئة على أعمالهم، وإلى ذلك أشار الله تعالى في سورة الفاتحة فقال ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ * الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ * مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾.. فما دام الله تعالى مالك الجزاء والثواب، فلا بد أن يُظهر نتيجة كل فعل في الدنيا عاجلا أو آجلا؛ ولو ظلت نتيجته في طي الكتمان هنا، لظهرت في الآخرة حتمًا. ولطالما أنكرت الدنيا هذه الحقيقة التي قد بينها القرآن الكريم، ولكن قد أثبتَ

العلماء منذ بضع سنين أنه توجد في نطفة الإنسان الجينات أو المورّثات التي تختزن الصفات الوراثية وتنقلها، فهناك جينات الغضب والأمانة والكذب والصدق مثلا، فإذا كان في بعض أجداده خصال معينة –حسنة أو سيئة– فهي ستظل تنتقل في نطفة نسله على شكل جينات، وبعد بضعة أجيال ستظهر في نسله خُلقًا، حسنًا أو سيئًا. ولنفترض أنها كانت جينة سرقة، فإذا كبر هذا الولد الذي تنتقل إليه هذه الجينة لأصبح سارقا، فيستغرب أهله كلهم كيف أصبح هذا سارقا مع أن أباه وجدَّه لم يكونا سارقيْن، مع أن هذا التأثير ليس من أبيه وجده، بل من أحد أجداده القدامى الذي كان سارقًا، فلم يزل ينتقل من جيل إلى جيل من خلال النطفة وظهر الآن في الجيل السادس أو السابع مثلا. وهكذا لا تزال أعمال الكذب والغش والخداع والظلم كلها تؤثر على نطفة المرء وتترك علامات في جيناتها ثم تظهر في الأجيال اللاحقة. فالمرء يظن أن عمله أصبح في طيّ الكتمان، ولكنه لا يختفي في الواقع، بل يظل قائما باستمرار ويظهر في أجياله القادمة في وقت من الأوقات.

وهذا الأمر ليس مجرد وهْم، بل حقيقة ثابتة تؤكد أن الله تعالى يرتب النتائج على كل فعل في هذه الدنيا. وهذه هي العقيدة التي يتولد بها الخير من الطراز الأول في الدنيا، والذي ينكرها يصبح غافلا عن مسؤولياته الأخلاقية والاجتماعية فلا يهتم بإصلاح أمته بسبب أنانيته.

لقد علّم المسيح الناصري عليه السلام أتباعَه الدعاء التالي: "لِيَأْتِ مَلَكُوتُكَ، لِتَكُنْ مَشِيئَتُكَ كَمَا فِي السَّمَاءِ كَذلِكَ عَلَى الأَرْضِ" (متى ٦: ١٠)، ويظن المسيحيون أن معناه أن تكون غلبة أحكام الله على الأرض أيضا، مع أنها غالبة فيها سلفًا! إنما المراد أن يسلِّم أهل الأرض بحكم الله تعالى كما يسلِّم به أهل السماء. الواقع أنه لو أيقن الناس أن ملكوت الله جارٍ في هذه الدنيا لانمحى منها كل فساد. إن اليقين بالإله القادر على كل شيء يحفز المرء على التضحية الحقيقية. انظروا كيف ضحّى الصحابة بكل شيء. كانوا ذوي أهل وأولاد، ولكنهم كانوا موقنين بأن ربهم حيٌّ، فإذا ماتوا فسوف يتولى أهليهم وأولادهم، ولو مات أهلوهم وأولادهم أيضا فسيجزيهم في الآخرة. مَن كان يؤمن بأنه لا يخفى على الله شيء ولو كان مثقال

ذرة فلن يظلم الفقراء، ولن يسكت على غفلة قومه لعِلْمِه أن الله تعالى سيعاقبهم وسيصيبه نصيب من العقاب، ولن يقصّر في أداء مسؤولياته الروحانية، ولن يقوم بأعماله برياء، إذ إنه يريد الجزاء من الله الذي يراه، فلِمَ الرياء؟ وما دام يفعل الخير، فكيف يمكن أن يمنع الآخرين من فعل الخيرات؟

ثم لا يغيبنّ عن البال أنه مما لا شك فيه أن حكم الله تعالى وقانونه جارٍ في الدنيا منذ الأزل وسيظل كذلك إلى الأبد، إلا أنه يتجلى بشكل ساطع في الدنيا في زمن بعثة المأمور الرباني. لا جرم أن الله تعالى يعاقب الظالم دائما، ويكتب الازدهار للصالحين دوما، ولكنه حين يقيم جماعة من الصالحين المتقين على يد مأمور من عنده، فإن قانونه هذا يظهر بشكل جليّ. حين اختفى النبي ﷺ في غار ثور مع أبي بكر عند الهجرة، خرجت جماعةٌ من كفار مكة مع خفير يبحثون عنه، حتى وصلوا متتبعين آثار أقدامهما إلى فم الغار الذي لم تكنْ مساحته أكثر من مترين أو ثلاثة. ومن عجائب قدر الله وحكمته أن العنكبوت نسج بيته على شجرة على فم الغار بعد دخول النبي ﷺ وأبي بكر فيه، والعنكبوت ينسج بيته في دقائق كما هو معلوم لدى الذين رأوه. كان هذا تأييدا ربانيًا لنصرة النبي ﷺ، فإن الدليل الذي جاءوا به لتتبُّع أثره ﷺ لّما وصل إلى الغار وقال لهم بأن الأثر انقطع هنا وأن محمدا ليس إلا في هذه المغارة، كان بإمكانهم أن ينظروا إلى داخلها بكل سهولة، وأنّى لهم أن يفعلوا ذلك ما دام الإله الفعّال لما يريد لا يريد ذلك؟ لقد منع الله أعناقهم من أن تمتد إلى داخل الغار.

لقد خرجوا مع الدليل من مكة إلى مسافة ستة أميال ومع ذلك لم يصدّقوه وقالوا: لقد أصبحت مجنونا، إذ كيف يمكن أن يدخل أحد في غار قد نسج العنكبوت بيته على فمه؟ ألا يخرب بيته بدخوله.

فترى أنه من حيث التدبير الإنساني فقد كان محالاً أن لا يروا النبي ﷺ لو نظروا إلى داخل الغار، ولذلك نجد أن سيدنا أبا بكر رضي الله عنه قلق على النبي ﷺ وقال له: يا رسول الله، لقد اقتربوا منا حتى لو نظر أحدهم إلى داخل الغار قليلا لرآنا، فقال النبي ﷺ: لا تحزنْ إن الله معنا. لم يأت هؤلاء للقبض على أبي بكر، إذ لو أخذوه

لضربوه ثم خلّوا سبيله، إنما جاءوا للقبض على النبي ﷺ، ولكنه ﷺ قال بكل طمأنينة: لا تحزن إن الله معنا.. أي أن الله تعالى ليس جالسا على عرشه عاطلاً، بل إنه يتصرف في كل ذرة من العالم تصرفا كاملا، فأنّى لهم أن يرونا؟ فقال أبو بكر: يا رسول الله، إنني لا أخاف على نفسي، لأنهم لو قتلوني فلا بأس، إنما أخاف عليك، لأنهم لو أصابوك بضرر لهلك الدين (المواهب اللدنية، ج ١ باب هجرة المصطفى وأصحابه إلى المدينة).

انظر إلى هذا اليقين العظيم الذي كان عند النبي ﷺ بوجود ملكوت الله على الأرض. كان موقنًا أنه ليس بوسع أحد أن يفعل خلاف مشيئة الله شيئًا.

ثم حين لم يستطع الصحابة الثبات في غزوة حنين نتيجة مطر سهام الكافرين حتى لم يبق مع النبي ﷺ إلا شخص واحد، أراد ﷺ أن يتقدم إلى العدو، فأمسك أبو بكر بلجام ركابه قائلا: يا رسول الله، هذا ليس وقت التقدم، لننتظرْ اجتماع القوم ثانية، فقال النبي ﷺ بحماس شديد: دَعْ لجام فرسي، ثم حثّ حصانه نحو العدوّ قائلا: أنا النبي لا كذبْ، أنا ابن عبد المطلب.. أي أنا نبي الله الذي قد وعدني قائلا: والله يعصمك من الناس. (الطبقات الكبرى لابن سعد: غزوة رسول الله إلى حنين، والسيرة النبوية لابن هشام: غزوة حنين)

يا له من دليل ساطع على قوة إيمان النبي ﷺ بأن الله فعّالٌ لما يريد! كان يعلم أن الله تعالى ليس جالسا على العرش فقط، بل إن حكمه جار في الأرض أيضا، والسهم عبدٌ لله ﷻ، لا سيدًا عليه، ولا يصيب هدفه إلا بأمره تعالى، فكيف يصيبني أيٌّ من سهام العدو بدون إذن الله؟ انظرْ إلى قوة إيمانه ﷺ! فهناك ٤ آلاف رام يمطرون السهام نحوه في ممر ضيق، ولكنه ظل يمضي قدمًا وهو يقول: أنا النبي لا كذب، أنا ابن عبد المطلب.. أي أنا نبي الله حقا، وقد وعدني أن العدو لن يقدر على قتلي، فكيف يمكن لسهامهم أن تقتلني؟

وذات مرة أمر ملكُ الفُرْس بالقبض على النبي ﷺ، وكان ذلك بتحريض اليهود، إذ قالوا له إن دولة جديدة تتأسس في الجزيرة العربية وسوف تسبّب لك المشاكل، فبعث الملك لغبائه إلى واليه على اليمن: لقد سمعتُ أن شخصًا قد ادعى النبوة بين

العرب، فأَلْقِ عليه القبض وابعثْه إليّ. فبعث الوالي رجاله إلى المدينة المنورة، فقالوا للنبي ﷺ: لقد بعثَنا الوالي بأمر من ملك الفرس لنأخذك إليه، فنرجوك أن تأتي معنا؛ فقد أمرنا الوالي أن نخبرك أنه سيشفع لك عند الملك ويخبره أنه قد بلغه خبر خاطئ عنك؛ إذ لا خطر منك على أمن البلاد، والأمر مجرد سوء فهم. فقال النبي ﷺ: انتظِروا وسوف أجيبكم بعد الدعاء، فحضروا إليه في اليوم التالي ثم الثالث فأجابهم بالجواب نفسه، ولما كان اليوم الرابع جاءوا إلى النبي ﷺ وقالوا: نرجوك أن تخبرنا بقرارك. فقال ﷺ: اذهبوا إلى واليكم، وقولوا له إن ربي قد قتل ربه البارحة. فتوسلوا إلى النبي ﷺ أن يعيد النظر في قراره، إذ لا يكون مآله خيرا لبلاد العرب، بل سيحل بها دمار كبير، ولن يبقى حجر على حجر؛ فالخير له أن يأتي معهم، وأنه لن يصيبه الملكُ بسوء، إذ وعد الوالي أنه سيشفع له عنده. فقال النبي ﷺ: لقد قلت لكم اذهبوا وقولوا للوالي إن ربي قد قتل ربه البارحة. فرجعوا وبلّغوه الخبر. فقال لدى سماع جواب النبي ﷺ إما أن هذا الرجل مجنون، أو أنه نبي الله حقًا؛ إذ لا يمكن أن يتفوه بهذا الكلام شخص عادي. وبعد انقضاء أسبوعين بلغ الواليَ خبرُ وصول سفينة مَلَكية، فبعَث سكرتيره لاستقبالها، فلما قدّم سفير الملك الفارسي رسالته للوالي قبَّلها باحترام على عادة الفرس، ولكنه لما وجدها مختومة باسم ملكٍ آخر قال لحاشيته: يبدو أن ما قاله نبي العرب حقّ، ثم فتح الرسالة فإذا بابن الملك السابق يقول فيها: اعلمْ أننا قد قتلْنا الملكَ في اليوم الفلاني بسبب ظلمه وأصبحنا ملِكًا، فخُذْ عهد طاعتنا من جميع المسؤولين. وكان من الأوامر الغاشمة التي أصدرها أبي أن يُلقى القبض على مدعي النبوة الذي ظهر في الجزيرة العربية ويُبعث إليه أسيرا، ولكننا قد ألغينا هذا الأمر، فلا داعي لتنفيذه. ثم وجد الوالي أن الرسالة مؤرخة في نفس اليوم الذي قال فيه النبي ﷺ لرجاله أن يبلّغوه أن ربه قد قتل ربه البارحة (تاريخ الرسل والملوك ج٣، ذكرُ خروج رسل رسول الله إلى الملوك).

فما أعظمَها من آية ساطعة على أن الله تعالى فعال لما يريد، حيث أهلك الله المِلك بيد ابنه، مؤكدًا أن حكمه ﷻ سارٍ على كل ذرة من الكون.

هذه هي العقيدة التي تضمن العدل والإنصاف في الدنيا، ولذلك يقول الله تعالى هنا ﴿أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالدِّينِ﴾.. أي أَخْبِروني مَن ينكر وجود حكومة إلهية في الدنيا، لأن الذي ينكر ملكوت الله على الأرض لا يتحلى بالتقوى الحقّة أبدًا. إن الذي يعلم أن الله تعالى يدير هذا الكون كله ويرتب النتيجة على كل فعل، فأنَّى له أن يرتكب معصية؟ وكلما ازداد المرء يقينًا بهذه الحقيقة ازداد ورعًا وتجنّبَ السيئات أكثر.

المفهوم الخامس: ومن معاني الدين الديانة. اعلمْ أن الدين –وإنْ لم يكن دينا حقًّا– يحول دون المساوئ كثيرا، لأنه ينهى عن المعاصي ويحثّ على التحلي بالأخلاق الفاضلة. يقال أن الدين أكبر سبب لانتشار الحروب والمفاسد في العالم، ولكن التدبر يكشف أن الدين ليس السبب وراء نشوب الحروب والفتن، وإنما السبب عدم العمل بالدين. خذوا مثلا السيخية التي أساسها على تعاليم حضرة "بابا نانَك" –رحمه الله– الذي قال: عيشوا بسلام، وارحموا بني جنسكم، ولا تثيروا الفتن ولا تعثوا في الأرض مفسدين. وهذا هو حال الهندوسية أيضا. إنّ تابع أيِّ دين يمكن أن يقع في أعمال الفتنة والفساد خلافًا لتعاليم دينه، إلا أن ضميره لا بد أن يؤنّبه في وقت ما أن ما يفعله خطأ وأن عليه تجنُّبه. فكم مِن فظائع قد ارتكبها العالم المسيحي! فقد استَعْبدوا العالم بالرق طيلة خمسة قرون بما لا نظير له في العالم، مع أن الإنجيل لم يعلّمهم إلا "مَنْ لَطَمَكَ عَلَى خَدِّكَ الأَيْمَنِ فَحَوِّلْ لَهُ الآخَرَ أَيْضًا..... وَمَنْ سَخَّرَكَ مِيلاً وَاحِدًا فَاذْهَبْ مَعَهُ اثْنَيْنِ" (مَتَّى ٥: ٣٩–٤١). ومع هذه الفظائع التي جناها العالم المسيحي إلا أن أيًّا من المسيحيين عندما يتدبر الإنجيل لا بد أن يمتلئ قلبه بمشاعر الرحمة، فيقول يجب أن أرتدع عن ظلم الناس. أما الديانة الهندوسية فقد أتت بتعاليم أخلاقية عظيمة. لقد قمت بمطالعة كتابها "الفيدا"، فأيقنت أنه من عند الله تعالى. لا شك أنه قد تسربت في "الفيدا" خرافات

وترهات أيضا، ومثالها تلك القصة التي تقول إن أحد "الريشيين"◈ نزَع إزاره ووضعه جانبًا، فوُلد من الإزار ولد وقال: لقد وُلدتُ هكذا لأني لم أرد أن أولد من الطريق الوسخ المعروف! ومع ذلك ذُكرت صفات الله تعالى في "الفيدا" ذكرًا رائعا يُشعر قارئها كأنه يصعد من الأرض ويحلّق في السماء. فرغم تسرُّب هذه الأمور الخرافية إلى الفيدا إلا أن منبعه الأصلي هو الله تعالى، وكل من يطالع الفيدا من دون تعصب سيمتلئ قلبه بمشاعر الروحانية حتمًا. وهذا هو حال الإنجيل والتوراة والزندافستا وغيرها من الكتب السماوية.

إن الدين –سواء كان حقًا من عند الله تعالى أم كان باطلا زائفا– لا يمكن أن ينتشر من دون أن يعلِّم فعل الخيرات. هل هناك دين في العالم يعلّم الخداع والفحشاء؟ لا شك أن هناك فرقة هندوسية باسم الدامارغية✸ تجيز الفحشاء، ولكنها ليست ديانة، بل هي فلسفة، إذ لا ينسبون أنفسهم إلى أي دين سماوي، بل يفسرون كتابه السماوي تفسيرا باطلا، فمثلا إذا قال "الفيدا": على المرء فعل الخير، ففسّروه بأن عليه أن يعمل الفحشاء. فالحق أن الدامارغية ليست ديانة إنما هي فلسفة زائفة فحسب، لأن الدين يعني أن يقوم إنسان بدعوى أن الله تعالى قد أمره بكذا وكذا. ولكن لا يوجد في العالم كتاب سماوي يأمر بالفحشاء، ولا يمكن أن يدعو أي دين إلى ذلك، وإلا فلن يحظى بالقبول بين الناس. إن الدين يتقدم دائما بشَقّ طريقه من خلال تيار العقائد المخالفة السائدة، وما دام يعلِّم ما يخالف التيار السائد، فكيف يمكن أن ينتشر لو دعا الناس إلى ما هو خلاف الفطرة أيضا؟ تكون

◈ كلمة "الريشي" يطلقونها على عالمِ دين هندوسي أو ناسك على شاكلة الرهبان في المسيحية، وقد أُخذت هذه الكلمة في الأصل من أربعة أشخاص نزل عليهم كتابُ الهندوس "الفيدا" في بداية الكون حسب اعتقادهم، وكل واحد منهم يسمى "ريشي". (المترجم)

✸ الدامارغية: طائفة هندوسية ترى أن غاية خلق الإنسان لا تتحقق إلا إذا عمل على تحقيق رغباته كلها –مهما كانت سيئة وبشعة– لأن الله تعالى ما دام هو خالق فطرة الإنسان، فكل رغبة تتولد في قلبه تكون موافقة لمشيئته تعالى. (المترجم)

الطقوس والتقاليد والعادات السائدة خلافه سلفًا، فلو كان خلافًا للفطرة أيضا، فكيف ينتشر يا ترى؟ لا شك أن الدين يعارض بشدةٍ الطقوس والتقاليد السائدة، ولكنه يتفق مع الفطرة والعقل تماما، فينتصر في آخر المطاف رغم معارضة العالم، لأن الفطرة والعقل تُحْدِثان في قلوب الناس ثورةً لصالح الدين.

بعث إليّ شخص من بورما ذات مرة كتابا عن البهائية وقال: انظرْ كم هي رائعة تعاليم البهائية، إذ تأمر الناس: قولوا الحق، وعلِّموا النساء، ولا تظلموا أحدا، وتجنبوا السيئات! كيف يمكن أن يكون مثل هذا التعليم باطلا وافتراء؟ فقلت له: لا شك أنها تعاليم جيدة جدا، مع ذلك لا أتفق مع النتيجة التي توصلتَ إليها. تقول: ما أروع تعاليم البهائية التي تقول: لا تكذبوا، ولا تخدعوا، وأدُّوا حقوق النساء، وكونوا أُمناء، فابعثْ لي مِن كتب الديانات العظمى اليهودية والإسلام والهندوسية والزرادشتية تعليمات تقول: اكذبوا، ولا تصدقوا القول، ولا تكونوا أمناء، ولا تعدلوا، ولا تعطوا النساء حقوقهن، فإذا وجدتَ في كتاب أي ديانة تعاليم كهذه، سأتفق معك بأن البهائية تقدّم تعاليم رائعة. ما دامت الأديان كلها تعلِّم شيئا واحدا، فما الذي يميز البهائية عنها؟ إنها تعليمات فطرية ولا بد لكل دين أن يقدمها، إذ كيف يمكن أن ينجح دينٌ يدعو إلى ما يتنافى مع الفطرة؟

فثبت أن كل دين –حقًا كان أم باطلا– يأمر بالتحلي بالأخلاق الحميدة، ومن أجل ذلك قد أجاز القرآن الكريم لنا الزواج من الكتابية، ولكنه لم يُجزْ لنا الزواج من نساء غيرِ أهل الكتاب، وأحلَّ لنا ذبيحة أهل الكتاب، ولكنه لم يُحلّ لنا ذبيحة غيرِ أهل الكتاب؛ ذلك أن المسلم إذا تزوج من مسيحية –مهما كانت ضعيفة الإيمان– فلا بد أن تهذّب تعاليمُ الإنجيل سلوكها إلى حدّ ما، وإذا تزوج يهوديةً فلا بد أن تضبط أحكام اليهودية تصرفاتها، وإذا تزوج هندوسية فلا بد أن تمنعها تعاليمها من الإباحية واللادينية. أما المرأة التي لا دين لها وتنكر نزول أي كتاب من عند الله تعالى لهداية العالم، فلا بد أن تسلك مسلكًا لا نتوقعه. فيما يتعلق بالمرأة المسيحية أو اليهودية فنعلم ما يمكن أن تفعله لأن تعاليم ديانتها تضبط سلوكها، ولكن المرأة التي لا دين لها فلا يمكن أن نتوقع ما ستقوم به؛ إذ ليس هناك تعاليم

تصوغ سلوكها. وكما قلت إن أكْل ذبيحة أهل الكتاب جائز لنا، فقد استجاب النبي ﷺ لدعوة طعام من قِبل امرأة يهودية، وأكل طعامها (السيرة النبوية لابن هشام: بقية أمرُ خيبر: أمرُ الشاة المسمومة). لا شك أنها دست السم في طعامه، ولكنه تصرف فردي، إذ إن اليهودية لا تُعلِّم دسّ السمّ في طعام أحد.

باختصار، لا بد أن يكون عندنا أساس يضمن لنا السير في طريق محفوظ، وليس ذلك الأساس إلا الدين. ولذلك يقول الله تعالى هنا ﴿أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالدِّينِ﴾.. أي لو تفحصت أحوال الناس تبينَ لك أن الدين –كل دين حقًا كان أم باطلا– يحول دون ارتكاب كثير من السيئات. لو كان دينًا حقا فهو نور على نور، وسوف يحمي من كل أنواع المفاسد والسيئات، أما إذا كان دينًا باطلا فسينقِذ من كثير من السيئات أيضا، لكونه يعلِّم الأخلاق حتما. إن الذي يؤمن بالدين فإن ضميره يؤنبه عند فعل المنكر بأنه يرتكب خطأً خلاف تعاليم دينه، أما الذي لا يسلّم بضرورة الدين ستجده يقع في أنواع المساوئ، ثم يصر عليها بأنه يحسن صنعا. واستباحة السيئة أمر خطير جدا.

المفهوم السادس: ومن معاني الدين العبادة، وعليه فقوله تعالى ﴿أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالدِّينِ﴾ يعني: أَخْبِرْني عن الذي ينكر عبادة الله ﷻ.

إن عبادة الله أيضا تساعد صاحبَها على فعل الخيرات العظيمة وتكفّه عن السيئات كثيرا، سواء كانت عبادة حقة أم باطلة. ليس ضروريا أن العبادة التي يعلّمها الدين الحق هي وحدها التي تمنع من المنكرات، كلا، بل كل عبادة لله تعالى تنهى عن السيئات؛ سواء عبادة الهندوس أو عبادة النصارى أو اليهود أو الزرادشتيين. وعلى سبيل المثال عندما يدعو المسيحيُّ اللهَ تعالى قائلا: "لِيَأْتِ مَلَكُوتُكَ، لِتَكُنْ مَشِيئَتُكَ كَمَا فِي السَّمَاءِ كَذلِكَ عَلَى الأَرْضِ. خُبْزَنَا كَفَافَنَا أَعْطِنَا الْيَوْمَ" (مَتَّى ٦: ١٠–١١)، فلا بد أن يملأ هذا الدعاء قلبه بخشية الله. والملك الجبّار المستبدّ إذا قام أمام الله تعالى ولو مرة واحدة في اليوم ودعا ربه قائلا: "خُبْزَنَا كَفَافَنَا أَعْطِنَا الْيَوْمَ"، فلا بد أن يخلق هذا الدعاء في قلبه شيئًا من التواضع لإدراكه

أنه بحاجة إلى أحد، وهذا التفكير لا بد أن يدفعه إلى فعل الحسنات. فثبت أن عبادة الله تعالى في حد ذاتها تنجي من المنكرات، وهذا ما بيّنه الله تعالى في قوله ﴿إِنَّ الصَّلاَةَ تَنْهَى عَنِ الفَحْشاءِ وَالْمُنْكَرِ﴾، وقد أشار إلى الأمر نفسه في قوله: ﴿أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالدِّينِ﴾.. أي أَخْبِرْني عن الذي ينكر عبادة الله، فستجده مصابًا بعيوب كثيرة، فهو يظلم اليتامى، ولا يؤدي حقوق المساكين، ويقوم بالرياء والمداهنة والنفاق. لقد قال الله تعالى في آيةٍ سابقة بأن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر، أما هنا فقال إن منكر الصلاة يقع في المعاصي، والحق أن مفهومهما واحد.

ما هي العبادة؟ وما هو الخير الحقيقي؟ لقد قام الفلاسفة الأوروبيون بجدال كثير حول هذا الموضوع في عدة مجلدات، وقد توصلوا بعد بحوث طويلة إلى أن الخير هو ما ينفع أكثر الناس، وعرّفوه عدّة تعريفات، ولكنها كلها عرضةٌ للاعتراض بشكل أو بآخر. خذوا مثلاً قولهم أن الخير هو ما ينفع أكثر الناس، فلو قرر أكثر الناس نهب الآخرين، فهل يصبح النهب خيرا؟ بحسب هذا التعريف إن نهب الأكثرية للأقلية جائز، مع أنه ليس بجائز في الواقع. وهذا هو حال تعريفاتهم الأخرى، فكلها باطلة. هناك تعريف واحد صحيح للخير عندي، وهو ما تعلّمناه من القرآن الكريم بأن الخير هو أن يعكس الإنسان صورة الله في نفسه ويصطبغ بصبغته. وهذا هو معنى التعبد؛ فعبادة الله تعني محاولة المرء عكس صورة الله تعالى في نفسه والاصطباغ بصبغته. إن الذي ينكر وجود البارئ تعالى يجب أن يقتنع أولاً بوجوده، وإذا اقتنع فلا مناص له من الاعتراف أن الله هو الكامل المنـــزه عن كل عيب، وبالتالي ليس الخير إلا أن يسعى الناس لأن تنعكس ذات الإله الكامل البريء من العيب في أنفسهم، فيصبحوا صورة له ﷻ. وإذا أصبح الإنسان مظهرًا لصفات الله تعالى، فلا بد أن يحسن إلى خلقه كلهم، فتشمل رحمتُه الصديق والعدو، لأن الجميع عباد الله تعالى، فأبو جهل أيضا من عباده، ومحمد ﷺ أيضا من عباده. وهذا هو الدرس الذي يعلّمنا إياه حادثُ يونس عليه السلام؛ لقد أخبره الله تعالى بوحيه أن أهل نينوى سوف يدمَّرون بالعذاب بعد ٤٠ يوما، فخرج منها إلى البرية ينتظر نزول العذاب عليهم، وبعد انقضاء ٤٠ يوما قابلَه بعض أهالي نينوى فسأله عن مصير أهلها،

فقال: كلنا بخير. ففكر يونس عليه السلام أنه لو رجع إلى نينوى فسيتعرض للندم الشديد، فركب سفينة مهاجرًا إلى بلد آخر. فجاءتها العاصفة، فقال يونس عليه السلام لأصحاب السفينة بأن هذا العذاب إنما أحاط بهم بسببه لأنه عبدٌ آبقٌ من عند سيّده سبحانه وتعالى، فألحّ عليهم أن يلقوه في البحر لينجوا من العذاب. فألقوه بعد إصرار وإلحاح منه، فالتقمه حوت، ثم تقيّأه بعد ثلاثة أيام ونبذه على الشاطئ وهو حيّ. لقد بلغ منه الضعف كل مبلغ لبقائه في بطن الحوت، فأنبت الله تعالى هناك شجرة يقطين، فاستظلّ بظلها وارتاح. فأمر الله سبحانه وتعالى دودة، فقطعت الشجرة في الليل، فلما رآها يونس عليه السلام في الصباح أخذ يلعن الدودة التي قطعتها، والإنسان إذا غضب سبّ الجمادات ولعن الحيوانات. فأوحى الله تعالى إليه: يا يونس، أأنت أنبتَّ هذه الشجرة؟ قال: لا يا رب. قال الله تعالى: لم تزرع الشجرة ولم تنبتها، وإنما استمتعت بظلّها، ولكنك غضبت غضبا شديدا حين قُطعت حتى أخذتَ تلعن الدودة التي قطعتْها! لقد حزنت لهذه الدرجة على قطع شجرة، فهلا فكّرتَ في أن أهل نينوى عبادُنا وإن كانوا آثمين، وما داموا قد تابوا فكيف تتوقع منا أن نقطع دابرهم؟

هذا هو إلهنا الذي لا يحابي أحدًا ولا ينحاز إلى الأقوياء أصحابِ الأعوان والأنصار. إنه يريد الرحمة لعباده، والرحمة فقط. فكلما استرحمه عبد من عباده رحِمه وعفا عنه قائلا: اذهبْ قد غفرنا لك، شريطة أن تكون التوبة صادقة. يقول الله تعالى ﴿كُلًّا نُمِدُّ هَؤُلاءِ وَهَؤُلاءِ﴾(الإسراء:٢١).. أي أن ميزة ملكوته أنه يرزق محمدا ﷺ ويرزق أبا جهل أيضا، وأن شمسه إذا طلعتْ نفعت المؤمن والكافر أيضا. فإذا اصطبغنا بصفات هذا الإله فلا يمكن أن نكون على الخطأ. فعبادة الله لا تعني مجرد السجود والركوع، وإنما العبادة الاقتداء بهذا النموذج السامي، فمَن صاغ حياته بحسب هذا النموذج عاش عيشة سامية جدا، فالواضح أن الذي يتخذ الذات الإلهية نموذجًا له لا بد أن يكون أفضل عملاً وأحسن أسوة من الجميع.

المفهوم السابع: ومن معاني الدين الملة، والملة لها مفهومان، أحدهما: الشريعة والدين، وثانيهما: الأمة. علمًا أن هناك فرقًا بين معنى الدين والملة، فيمكن أن نقول دين الله، ولكن لا نقول ملة الله، لأن الشريعة تأتي من الله تعالى، ولكن الله تعالى أسمى من أن ينحاز إلى قوم أو أمة. والملة أوسعُ معنى من الدين، فالملة تشمل الدين (أي الشرعَ)، ولكن لا يشمل الدين الملة. غير أن هناك معنى آخر للدين يشابه مفهوم الملة، وهو الخدمة، يقال: دان فلانًا: خدَمه (الأقرب). ولما كانت الآية التالية تقول ﴿فَذلِكَ الَّذي يَدُعُّ اليَتِيمَ﴾، فالدين هنا يعني خدمة الأمة أيضا. والواقع أن الأمور المشار إليها في قوله تعالى ﴿وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ﴾ مِن خدمة اليتامى والإحسان إلى المساكين وحثّ القومِ على حسن معاشرة الناس ليست أعمالا فردية، بل كلها أعمال جماعية وتندرج في خدمة الأُمة، إذ ليس ضروريا أن يكون هذا اليتيم أو المسكين من أقاربك، وعليه فقوله تعالى ﴿أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالدِّينِ﴾ يعني أيضا: أَخْبِرْني عن الذي ينكر ضرورة خدمة الأمة، وبتعبير آخر: الذي ليس عنده حماس لخدمة الأمة وللنهوض بمجتمعه.

قال النبي ﷺ: "الكفر ملة واحدة" (الموطّأ:كتاب الفرائض، باب لا يرث المسلم الكافر، والبحر المحيط: تفسير الآية ٨١ من سورة آل عمران)، والملة هنا لا تعني الشرع، لأن الأمم الكافرة من يهود ونصارى وغيرهم ليس لها شرع واحد. فاليهود مثلاً يؤمنون بالله الأحد رغم تفشي الفساد والضلال بينهم على نطاق واسع، أما النصارى فيختلفون عن اليهود في مسألة وحدانية الله التي هي أساس قضايا الدين كلها، فيعتقدون أن المسيح عليه السلام ابن الله، وقد اتخذ الله تعالى السيدة مريم أداةً لولادة ابنه، بل إن فرقًا عديدة من المسيحيين الأرثوذكس تعبد مريم وتعتبرها بمثابة زوجة الله تعالى. فشتان بين عقائد اليهودية والمسيحية مع أنهما حلقتان من سلسلة واحدة.

أما الزرادشتيون فشريعتهم مختلفة تماما. فإذا كان اليهود يرون أن علامة رضا الله أن يُنعِم في هذه الدنيا، فإن الزرادشتيين يؤمنون أن الموعد الحقيقي للإنعام

الرباني هو ما بعد الموت؛ فلو قرأت التوراة والإنجيل بإمعان النظر وجدتهما يقولان إن الجزاء والثواب يظهران في هذه الدنيا نفسها، أو تجدهما -على الأقل- يركّزان على الجزاء المادي كثيرًا، بينما تجد الزرادشتية تجعل الجزاء والنعم كلها مخصوصة بالآخرة، حيث يركّز كتابها "الزندافستا" على الحياة بعد الموت كل التركيز ويخبر مرة بعد أخرى أن هنالك جحيمًا للعصاة وجنة للصالحين، فهناك تشابهٌ كبير بين تعاليم الزندافستا وتعاليم القرآن الكريم بهذا الشأن. إذا كان الإسلام يتشابه مع اليهودية في تفاصيل الشرع، فلا مشابهة بين الإسلام وبين اليهودية والمسيحية فيما يتعلق بالحياة بعد الموت، بل يبدو القرآن والزندافستا متشابهين بهذا الشأن تشابهًا كبيرًا وكأنهما قد خرجا من منبع واحد. أما الهندوسية فلا مشابهة بينها وبين اليهودية أو الزرادشتية، إنما أساس الهندوسية كله على أن بعض الأمم تفوق غيرها عِرْقًا وأن الله تعالى ينعم عليها فقط. لا شك أن اليهودية أيضًا تدّعي تفوُّقها العرقي على الأمم الأخرى، لكنها لا تشدّد على ذلك كما هي الحال عند الهندوسية، حيث تُعامل الأمم الأخرى معاملة العبيد والمنبوذين، لأن أساس الهندوسية كله على التفوق العرقي.

أما عقيدة التناسخ الهندوسية فلا تجد لها أي أثر في كتب اليهود ولا المسيحيين ولا في الزندافستا الزرادشتي.

فثبت من هنا أن قول الرسول ﷺ: "الكفر ملة واحدة" لا يعني أن عبادة الأديان الأخرى واحدة وعقائدها واحدة، وكتابها واحد، إذ يوجد بينها اختلاف هائل واضح، لذا فلا يستعمل ﷺ الملة هنا بمعنى الشرع، بل بمعنى الجماعة، أي أن كافة الأديان الموجودة في العالم جماعة واحدة ضد الإسلام، فخذوا الحذر منها أيها المسلمون ولا تظنوا أنها أمم مختلفة؛ فهؤلاء مسيحيون وهؤلاء يهود وأولئك زرادشتيون، كلا بل كلهم يد واحدة على الإسلام.

وإن تاريخ القرون الثلاثة عشرة الماضية شاهد على صدق قول النبي ﷺ. أما اليهود فقد أحسن المسلمون إليهم خلال حكمهم بما لا نظير له في الدنيا، فقلدّوهم مناصب مرموقة وأعطوهم أعمالاً هامة، ولكنهم لم يرفعوا السيف إلا على

المسلمين. أما الهندوس فكم أحسن الملوك المسلمون المغول إليهم، ولكنهم صاروا لهم أعداء في الأخير. أما السيخ فمعظم ولاياتهم الحالية إنما هي منحة من قبل الملوك المسلمين، وليست الضيعات التابعة لمعابدهم إلا هبة من المسلمين، بل الحق أن "أحمد شاه أبدالي" هو الذي أسس حكومة السيخ، ومع ذلك ينضم السيخ إلى صفوف الهندوس ضد المسلمين دائمًا. هذه هي الحال بالنسبة للزرادشتيين. إذًا، فقول النبي ﷺ "الكفر ملة واحدة" لا يشير إلى شريعة هذه الأمم، بل إلى تحزُّبها واتّحادها ضد الإسلام حيث بيّن ﷺ أنها تصبح يدًا واحدة ضد أهل الإسلام دائمًا.

فثبت من هنا أن من معاني الملة اتحاد الأمم بالإضافة إلى معنى الدين، وقد بينت سلفًا أن الملة تعني الإحساس بالأمة وضرورة خدمتها، وعليه فقوله تعالى ﴿أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالدِّينِ﴾ يعني أَخْبِرْني من الذي ينكر ضرورة التعصب القومي واتحاد الأمة، فمثل هذا الإنسان لا بد أن يركن إلى الفساد دومًا.

الغريب أن بعض الألفاظ تستعمل أحيانًا بمفهوم خاطئ تمامًا ومنها كلمة التعصب. أذكر جيدًا أن الخليفة الأول رضي الله عنه كان يقول دائمًا: إن الناس يقولون لغبائهم أن التعصب سيئ مع أنه ليس بسيئ بل هو حسن. وكانت ثقافتي عندها ضئيلة جدًا، فكنت أرتجف بسماع قوله هذا وأقول في نفسي كيف يقول حضرته أن التعصب محبّذ مع أنه سيئ جدًا. ثم انكشفت عليّ الحقيقة رويدًا رويدًا بمرور الأيام، وأدركتُ أن هذا اللفظ عربي ومعناه في العربية غير معناه في الأردية، وله معنى سيئ وآخر حسن أيضًا، إذ يعني لغةً إبداء المرء الغيرةَ من أجل دينه وطريقته ودفاعُه عنهما عند الهجوم. وهو معنى جيد بلا شك، فإظهار الإنسان غيرته لشيء عزيز وتضحيته في الدفاع عنه عمل محمود. أما نحن فقد أخطأنا في استعمال هذا اللفظ إذ حصرناه في معناه القبيح فقط، وهذا ما جعَلني أستغرب عندها من قول الخليفة الأول رضي الله عنه. فنحن نعني من التعصب الانحياز للقبيلة والقوم، غاضين الطرف عن مفهومه الآخر في العربية.

لقد بينتُ من قبل أن هذه الآية تتحدث عن جذور الحسنات، حيث بيّن الله تعالى ما هي الحسنات التي يفتح إهمالُها بابَ السيئات على مصراعيه، وما هي

الحسنات التي تساعد على المزيد من الحسنات. وقد قلت أيضا إن المفهوم الأساس لهذه الآية هو أن إنكار الدين خلافٌ للفطرة، ولا ينكره إلا الذي يضرب بالفطرة عرض الحائط، فبالتركيز على ضرورة الإقرار بالدين، أي بالملة، قد نبّهنا الله تعالى إلى أن الفطرة السليمة تُرغِّب الإنسان في خدمة أمته، فمَن أدرك ضرورة خدمة أمته فلا بد أن يكون أكثرَ فعلاً للحسنات ممن يقدّم حاجات الفرد على حاجات الأمة. لا شك أن هناك حقوقًا للأفراد، ولكن التركيز عليها يصبح إثمًا في بعض الأحيان؛ فمثلا تقول المسيحية بأن على الإنسان أن لا ينتقم، ولكن المسيحي يكذب حين يقدّم هذا التعليم أمام العالم، إذ لا توجد في الدنيا في هذا العصر أمة هي أكثر انتقاما من الأمة المسيحية. أما الإسلام فيقول: انتقِموا إذا كان الانتقام نافعًا. إذا رأيتم أن الانتقام من الظالم سينفع المجتمعَ أو الظالِمَ نفسه فانتقِموا منه، وإلا فلا تنتقموا؛ لأن الأصل هو نشر الخير. كان العرب شديدي التعصب.. أعني كانت عندهم عاطفة كبيرة لخدمة الأمة والتضحية من أجلها، ولكنهم أساءوا استخدام هذه العاطفة، وتشددوا فيها جدا، فتحولت هذه الحسنة سيئة. لقد استمرت بعض حروبهم لقرن من الزمان باسم حماية الفقير والمسكين، فذات مرة وضعتْ كلبة جِراءها في حقل بعض العرب، فجاء جمل وداسها برجله فماتت، ففكّر صاحب الحقل أنّ عليه أن ينتقم لجِرائها ما دامت قد اتخذت حقله مأوى لها، فقتَل الجمل الذي كان مِلْكًا لضيف حلّ عند بعض أهل القرية، فرأى المضيف أن عليه أن ينتقم لجملِ ضيفه، فقتل صاحبَ الحقل. فاجتمع قوم القتيل للانتقام له، وقررت قبيلة القاتل نصرة أخيهم، وبدأت الحرب بينهما، فأخذت قبائل أخرى تنضم إلى الطرفين حتى اشترك فيها بلاد العرب كلها، واستمرت قرنًا من الزمان (الكامل في التاريخ: ذكر مقتل كليب والأيام بين بكر وتغلب)، وراح ضحيتها آلاف الناس بسبب الانتقام الخاطئ، كان هناك مئات منهم لم يؤخذ ثأرهم بعد حتى وهب الله تعالى لنبيه ﷺ مُلْكَ الجزيرة، فللقضاء على هذه الفتنة التي لا تعرف النهاية قال النبي ﷺ في خطبته يوم حجّة الوداع: إن لبعض القبائل دمًا على غيرها، ولكن يجب وضع الحدّ لهذا الانتقام، وإلا ستذهب ريح العرب كلية، ولذلك أُعلن اليوم أن

الدولة ستأخذ ثأر كل قتيل، ولا يحق للأفراد أن ينتقموا لقتيلهم، وألغي اليوم كل دم سلف، وأعلن العفو عن الجناة؛ فلا يحق لأحد أن يأخذ ثأر قتيله بعد الآن. فاطمأن القوم وساد السلام. ولكن لو استمر العرب في عادتهم للانتقام وأخْذ ثأر قتلاهم على هذا النحو، لاستمرت عملية سفك الدماء طويلا في الإسلام أيضا. ولكن النبي ﷺ قام بتعديل عاطفة خدمة القوم هذه ووجَّهَها إلى مسارها الصحيح وإلى ما فيه الخير كله، وبيّن لهم أن الانتقام على هذا النحو لا يخدم الأمة بل يدمرها. وهكذا ولَّد فيهم عاطفة صحيحة لخدمة الأمة، ونجاهم من بلاء عظيم.

لقد سبق أن ذكرت أن من معاني الدين ضبط النفس والنظام؛ وهناك فرق بينه وبين الإحساس بخدمة الأمة، فضبط النفس والنظام يتعلق بالأمر الظاهر، فإنك مثلاً تمشي على الجهة اليسرى* من الطريق، ليس لأنك تحب ذلك بل اتّباعًا لنظام مجتمعك، إذ من الممكن أن تحب المشي على الناحية اليمنى، أما خدمة القوم فتعني أن الفرد إذا رأى أمته تتجه إلى الهلاك والدمار فلا يتردد في التضحية بنفسه دفاعا عنها؛ فالضبط والنظام يتعلق بطاعة أمر من الأوامر، أما عاطفة خدمة الملة فلا تكون طاعةً لأمرٍ أُمرتَ به، وإنما تهتم بأمتك بنفسك، وتشعر بضرورة رقي وطنك، وهذا الإحساس للنهوض ببلدك وأمتك يدفعك للتضحية في سبيلهما. خلال الحرب العالمية الماضية (الثانية) كان العدو قد مدَّ في طريق الجيش الياباني سياجًا مكهربا، فما استطاعوا التقدم، فبذلوا كل ما في وسعهم ولكن دون جدوى، فانبرى فتية منهم للتضحية بأنفسهم، فربطوا القنابل على بطونهم وألقوا بأنفسهم في السياج المكهرب، فتقطّع، وهكذا مهّدوا الطريق لجيشهم. إنهم لم يؤمروا بذلك، ولكنهم لما رأوا أنه لو استمر الوضع هكذا فسوف يتأخر تقدُّم جيشهم، ضحّوا بأنفسهم إنقاذًا للآخرين. إنني لا أناقش هنا ما إذا كان هذا الطريق للتضحية يتفق مع تعاليم

* في الهند وفي معظم البلاد التي كانت تحت حكم الامبراطورية الإنجليزية، كانت السيارات تسير في يسار الطريق كما هو الحال في إنجلترا، وذلك خلاف لكثير من دول العالم (المترجم).

الإسلام أم لا، وإنما ذكرت هذا المثال لأبين الفرق بين التضحية لخدمة الأمة وبين الضبط والنظام.

عندما بدأت الحروب ضد المسيحيين بعد الرسول ﷺ، خرج جيش مسيحي كبير لمحاربة المسلمين الذين كان عددهم ضئيلا جدا، وعرف المسيحيون بمكان الصحابة الموجودين في الجيش المسلم، فعيّنوا مجموعة من الرماة على جبل، وأمروهم أن يصوّبوا سهامهم إلى الصحابة خاصة، لإدراكهم أنهم لو قتلوا هؤلاء ذهبت ريح المسلمين وانهزموا. فاستُشهد كثير من الصحابة، وأُصيب العديد منهم في عيونهم بسهام العدو، فأصاب المسلمين قلق شديد لإدراكهم أن العدو سيقضي على الصحابة كلهم لو استمروا في التقدم. فتقدم فتية منهم بعد التشاور -وكان أكثرهم حماسا لذلك ابنُ ذلك الإنسان الذي زرع بذرة عداء الإسلام في مكة.. أقصد عكرمة بن أبي جهل- وقالوا: نحن نضحي بأنفسنا، لقد قدّم الصحابة خدمات عظيمة، والآن جاء دورنا نحن المتأخرين، فلا تحرمونا هذا الثواب، ودعُونا نغتنم هذه الفرصة. سوف نشنّ الهجوم على قلب جيش الأعداء ونقتل قادتهم. فقال لهم قائد الجيش المسلم أبو عبيدة بن الجراح ﷺ: هذه مخاطرة كبيرة ستقضي على كل الشباب الذين يذهبون لهذه المهمة. قالوا: صحيح، ولكن لا مناص من ذلك الآن. فهل تحب أن ينجو الشباب ويُستشهد الصحابة؟ فتشاورَ مع خالد بن الوليد الذي أيّدَ رأيَ عكرمة وقال: نعمْ، إن العدو قد علم نقطة ضعفنا، ويريد القضاء على الصحابة، فاسمحْ لنا أن نأخذ معنا ستِّين فتى، فنهاجم قلب جيش العدو. فلما رأى أبو عبيدة ﷺ إصرارهم سمح لهم بذلك، فأغار هؤلاء الفتية الستُّون على قلب جيش العدو وهزموه، ولكن معظمهم استُشهدوا في القتال. ويروي أحد الصحابة أنه لما هُزم المسيحيون وفرّوا، ذهبتُ إلى ساحة القتال لتفقّد الجرحى، فوجدتُ عكرمة جريحا يضطرب، فأدركت أنه عطشان، فتقدمتُ إليه بقربة ماء لأضعها في فمه، فأشار إلى الفضل بن العباس الذي كان يضطرب بالقرب منه من شدة جراحه، وقال: إنه أشد عطشًا مني وأحقّ بالماء، فاذهبْ إليه واسقه. فتوجهتُ إلى الفضل الذي أشار إلى جريح آخر يضطرب قريبًا منه. يقول

الراوي: كان هناك عشرة من الجرحى يضطربون في ذلك المكان، فكلما ذهبتُ إلى أحد منهم أشار إلى الآخر وقال: اسقه فهو أحق مني بالماء، وعندما وصلت إلى الأخير وجدتُه قد فاضت أنفاسه، فرجعتُ إلى التاسع فوجدته قد استُشهد، ثم إلى الثامن والسابع وهلمّ جرًّا، فوجدت الجميع قد لفظوا أنفاسهم. فظلّت قربة الماء في يدي ومات هؤلاء الجرحى واحدا بعد الآخر دون أن يشربوا من الماء جرعة (البداية والنهاية: وقعة اليرموك).

وليس ذلك إلا لأن كل واحد منهم كان يرى أن صاحبه أشدُّ منه عطشًا وأحق منه بالماء. هذه هي الروح الجماعية.. أي أن يقدّم المرء مصالح الأمة على مصلحته ويضحي بنفسه من أجل أمته ورقيها. ولكن لا يتولد الحماس السليم للتضحية من أجل الأمة إلا بعاطفة سليمة لخدمتها. إذا تحلى المرء بعاطفة خدمة أمته بشكل صحيح استعدَّ للتضحيات لها بلا هوادة، إذ يتسع أفق طموحاته. فلو أمعنتَ النظر في أضعف الناس وأجهلِهم لوجدت أن قوته الفكرية ليست ميتة كما يظن الآخرون. انظرْ إلى أشد الأمهات جهلاً، فكم تعتني بسد حاجات ولدها كلها وتهتم به كيلا يصاب بأذى؟ لو زرتَ أشدَّ بيوت القرية فقرًا لوجدتَ ربّة هذا البيت تُخرج عند زفاف ابنتها قطعة قماش من كيس أو إناء وتضعها في جهاز العروس، ولو سألتَها متى اشتريت هذا القماش لقالت: قبل عشر سنوات، واحتفظتُ به لهذا اليوم. لو كانت هذه قليلة العقل والتفكير فكيف فكّرت هكذا من أجل هذا اليوم؟ ثم تجد أن الفلاح إذا لم يجد مالاً يدفعه ضريبة لأرضه، أخرجتْ له امرأته شيئًا من المال، ولو سئلتْ مِن أين جاءت بهذا المال لقالت: لقد جمعتُه قرشا قرشا منذ سنوات طويلة لينفعنا عند الحاجة.

لماذا تفعل هذه المرأة البسيطة هكذا يا ترى؟ إنما ذلك لأن فيها عاطفة خدمة العائلة التي تدفعها إلى التفكير، وعندما تفكِّر فهي تلاحظ المصاعب، فتفكِّر في علاجها، فتنجح في التغلب عليها أخيرًا. كذلك كل رجل يفكّر في مستقبل أولاده حتمًا: كيف يعلّمهم وكيف يدبّر لهم الغذاء والكساء، وما هي المشاكل التي ستواجهه في تحقيق ذلك، وكيف يتغلب عليها. ولو تحولت قوة التفكير الفردية

هذه إلى قوة تفكير جماعية، لأخذ كل فرد من الأمة يفكّر في حاجاتها، حتى إن الإنسان الذي تظنه جاهلا لا يصلح لشيء، إذا بدأ يفكّر لمصلحة الأمة فسوف تتّسع آفاقه وطموحاته.

الواقع أننا عندما نسمي أحدًا جاهلا فإنما المراد أن عقله لم يتوجه بعد إلى التفكير لصالح الأمة، وليس أنه لا يقدر على التفكير أصلاً. لقد رأيت في مجلس الشورى لجماعتنا –وخبرتي هذه في الشورى ممتدة إلى عشرين أو خمس وعشرين سنة– أن حلقات القرار لا تكتمل في بعض الأحيان ما لم نضمّ إليها رأي الشخص العادي البسيط. إنني لا أضطر لاتخاذ القرار بنفسي إلا في واحد بالمائة من المرات، أما في ٩٩% منها فأتخذ القرار بأخذ شيء من هذا الرأي وشيء من ذاك الرأي. ولو لم نشرك عامة الأحمديين في مجلس الشورى لظلوا يفكرون في حاجات عائلاتهم، ولكن بعد أن أشركناهم في الشورى استنارت عقولهم، وبأخذ بعضٍ من آرائهم تكتمل خطتنا النهائية والقرار الجماعي الذي يكون نافعًا جدًا لجماعتنا. فكما أن الفرد يضع خطة له بالتفكير في حاجاته، كذلك لو وجّهنا عقله للتفكير في حاجات الأمة لأخذ الجميع يفكرون في حاجاتها. وكما قلت إن كل إنسان مزود بشتى الكفاءات والقدرات، سواء كان يعيش في الغاب أو الجبال أو في القرية أو المدينة. كل إنسان يمكن أن يفكر في مستقبل باكستان ومستقبل فلسطين، وفي كل قضية سياسية في العالم، إنما العيب أننا لم نولِّد فيه شعورا بأن عليه واجبات تجاه الأمة، ولذلك نجده يفكّر حينًا في زوجته وبناته وأولاده وأقاربه وسدّ حاجاتهم، ولا يفكّر في حاجات بلده وأمته ودينه. ليس ذلك لعدم قدرته على التفكير، إنما لأنه ليس معتادا على ذلك. لو تولدت في أفراد الأُمة عاطفة خدمتها، فإن أدنى فرد منها أيضا سيأتي لسدّ حاجاتها بمخططٍ ما بسيطٍ أو ذي بال. أما إذا لم تتولد عاطفة خدمة الأمة في أفرادها فإن المثقفين منهم أيضا –فضلاً عن العامة– سيظلون غافلين عن أمتهم، فلا يعرفون ما فيها من عيوب وما علاجها، حتى يصبح نظامها كله منخورا.

الواقع أن القوم لم يدركوا أن هناك عقلاً جماعيا، كما أن هناك عقلا فرديا. إن العقل الجماعي شيء غير مادي فلا يُرى، ولكنه يقيني قطعي بحيث لا يوجد في الدنيا شيء أكثرَ منه يقينا. وعندما تتولد عاطفة خدمة الملة في أفراد أمة يبدأ الجميع في سد حاجاتها، وتفكير الأفراد في حاجات الأمة يؤدي إلى الروح الجماعية، وهذه الروح تولِّد العقل الجماعي الذي لا يُرى، ولكنه حقيقة ثابتة لا يسع أحدًا إنكارها. والأمة التي يتولد عندها تفكير جماعي تنتصر على الآخرين رغم قلة ثقافة أفرادها، أما الأمة التي لا يتولد عندها تفكير جماعي تنهزم رغم تفوُّق أفرادها ثقافة. فكما أن من المحال أن يقوم الفرد مقام الحكومة، كذلك من المحال أن يحل العقل الفردي محلّ العقل الجماعي. لقد اتخذ بعض المسلمين تدابير فردية لحمايتهم خلال الفتنة التي حصلت في البلاد مؤخرا●، ولكنهم لم يتخذوا تدبيرًا جماعيا -لا شك أنهم قد اتخذوا تدابير جماعية في بعض المدن مثل أمرتسر، ولكن المدن مقابل الدولة هي بمنـــزلة الفرد مقابل الأمة- فلاقوا هزيمة مخزية على يد العدو. كان السيخ في البنجاب الشرقية يشكلون ٢٢% من السكان، بينما كان المسلمون يشكّلون ٤٤%، ولكن هؤلاء القلّة ضربوا أصحاب الكثرة ضربات شديدة فلم يستطيعوا أن يتقدموا خطوة واحدة. وليس ذلك إلا لأن السيخ يتمتعون بتفكير جماعي، والمسلمون يفتقرون إليه. والأمة إذا لم يكن لديها تفكير جماعي فلا تقدر على مواجهة المصائب الجسيمة ولا إحراز تقدُّم عظيم. يوجد في الجسم الإنساني آلاف الأعضاء المعقدة التي تقوم بأعمالها، فالأسنان تمضغ الطعام، والمريء يوصله إلى المعدة التي تهضمه، فيتحول إلى دمٍ خالصٍ يصل إلى القلب والدماغ وغيرهما من الأعضاء، فتستمر الحياة. ويوجد في الجسم شيء مماثل، بل هو أهم وأعقد من هذه الأعضاء الأخرى، وهو الروح التي عليها مدار الحياة كلها، والتي لم يستطع العلماء بعدُ إدراك كُنْهِها. إنها خلاصة آلاف العمليات المعقدة. لا شك أن الروح لا تُرى

● يشير حضرته ﷺ إلى المجازر التي وقعت سنة ١٩٤٧عند انقسام الهند وتأسيس دولة باكستان. (المترجم)

بالعين المادية، ولا جرم أن الدنيا لا تقدر على تحديد العضو الذي توجد فيه الروح، إلا أنه لا يسع أحدًا الإنكار أن هناك شيئا إذا غاب أصبح الجسد عاطلا تماما. عندما يموت الإنسان تكون أعضاؤه مِن قلب ومخ ومعدة وأمعاء وأيد وأرجل كلها موجودة ولا تختفي أبدًا، ومع ذلك ينهار نظام قلبه وأعصابه كله فجأة، مما يعني أن شيئًا آخر كان في جسده، نحن لا ندري أكان في بنانه أو يده أو قلبه أو مخه، إلا أنه لا يسعنا إنكار وجوده. وكما أن في جسد الإنسان روحًا هي مدار حياته تماما، كذلك هناك روح وعقل للأمة، وما دام هذا العقل الجماعي عاملا في أمة، فإنها تظل غالبة على الأمم الأخرى، ولا تقدر أمة على مواجهتها. انظروا إلى الإنجليز مثلا، فعندهم عقل جماعي يغلبون به الشعوب الأخرى دائما. يقول الألمان عن الإنجليز تعييرًا لهم: إنهم جهلاء ولا يخرجون من بينهم علماء أفذاذ، ويقول الفرنسيون أيضا تعييرًا للإنجليز: إنهم مقلّدون لا يوجد بينهم مخترعون. وأيُّ شك في أن الإنجليز لا يقدرون على مجاراة الألمان فيما يتعلق بالمخترعات الفردية؟ وأي شك في أنهم قد اقتبسوا من فلاسفة الألمان؟ ولا جرم أنهم لا يقدرون على مجاراة فرنسا في الآداب وفنون السلوك، كما ليس بوسعهم منافسة الفرنسيين والإيطاليين في مجال الفنون. ومع أن الألمان والإيطاليين والفرنسيين أفضل من الإنجليز من حيث العقل الفردي، إلا أن الإنجليز كأُمةٍ يغلبون هذه الشعوب دائمًا، ذلك أن عقل الإنجليز الجماعي أفضل منهم. إن الغلبة التي حازها المسلمون في بداية الإسلام إنما كان سببها عقلهم الجماعي، وإلا فإنهم كانوا أقلَّ من الرومان علمًا وثقافة، وكان بوسع الرومان أن يعلّموا المسلمين سنوات وسنوات بما عندهم من علوم، وكان الفُرس أفضل من المسلمين بكثير تجارةً ومدَنيّة. وهذا هو حال المجالات الأخرى، فما كان للمسلمين أن يجاروا الروم أو الفرس في أي ميزة فردية، إلا الدين، ومع ذلك حيثما ذهبوا هزموا الرومان والفرس. فما الذي كان المسلمون يتمتعون به؟ إنما ذلك أنه كان عندهم التفكير الجماعي ببركة الإسلام. هذا التفكير الجماعي لا يمكن أن يجاريه التفكير الفردي. والتفكير الجماعي يعني أن يكون عند كل فرد من الأُمة إحساس بأنه ليس بشيء، وإنما أُمته هي كل شيء. إن التضحيات التي قدّمها

الصحابة من أجل النبي ﷺ دليلٌ بيِّن على أنهم فضّلوا مصلحة الأمة على كل شيء. لم يكن النبي ﷺ فردًا، بل كان رمزًا لمجد الأمة، وكل التضحيات التي قدّموها من أجله ﷺ لم تكن لفرد واحد، بل كانت للأمة. ويمكنك تقدير تضحياتهم العظيمة من الحادث التالي:

كان العدو يمطر السهام نحو الرسول ﷺ في إحدى الغزوات، فكان طلحة رضي الله عنه يحمي بيده وَجْهَه ﷺ حتى شُلّت يده و لم تصلح لشيء بعد ذلك (البخاري، كتاب المغازي). ما أروعَها مِن عاطفة إيمان جعلتْه لا يتأفف ولا يحرك يده من أمام مطر السهام! فسئل طلحة رضي الله عنه مرة: ألم تكنْ تتأفف من شدة الألم عندما كانت السهام تصيب يدك؟ فقال: كنت أريد التأفف من شدة الألم، ولكن لم أفعل مخافة أن تتحرك يدي فيصاب النبي ﷺ.

إن هذا الحادث دليلٌ عظيم على أن القوم كانوا يرون أن لا قيمة للفرد، وإنما واجبهم أن يضحّوا في سبيل الأمة أو رمزِها محمد ﷺ ليل نهار بكل غال ورخيص وحتى بالأرواح.

بعد انتهاء القتال في غزوة أحد بعث النبي ﷺ صحابيًا لتفقُّد الجرحى، فوجد أنصاريًا قد أشرف على الموت، فاقترب منه وقال له: هل عندك رسالة تبلّغها أقاربك؟ فقال: كنت أنتظر أحدًا من أهل المدينة بفارغ الصبر لأوصل على يده رسالة إلى أهلي، فالحمد لله أنني وجدتك؛ ضَعْ يدك في يدي وعاهِدْني على تبليغ رسالتي لأهلي وأقاربي وإخواني، ففعل، فقال الأنصاري: بلِّغهم أن محمدا رسول الله ﷺ أمانةُ أُمّتِنا التي لا تقدَّر بثمن، وإني على يقين أنكم تدركون قيمة هذا الكنز الثمين، ومع ذلك أرى واجبًا عليّ أن أقول لكم إننا لم نَخُنْ هذه الأمانة وبذلنا في حياتنا كل ما في وسعنا للحفاظ عليها، والآن نحن نموت واضعين هذه الأمانة المقدسة في أيديكم، وآمل أن يكون أولادي وإخواني وأقاربي كلهم أشدّ حرصًا على حفظ هذه الأمانة المقدسة منهم على أرواحهم، وألا يقصّروا في أداء هذا الواجب أبدًا (السيرة الحلبية: غزوة أحد).

إن الإنسان إذا أشرف على الموت فكّر في زوجته حينًا وفي أولاده حينًا، وقال: لي مال عند فلان وعليّ قرض لفلان، ويجب تعليم أولادي هكذا، والإنفاق على زوجتي من مال كذا، ولكن انظروا إلى ذلك الصحابي فإنه لم يفكّر عند الموت إلا في أمته، بل في البشرية كلها. لقد وجد روحَ أُمته، بل روحَ البشرية كلها قد انكمشت في شخص الرسول ﷺ، فأنساه حبُّه للأمة حقوقه الفردية، فلم يفكّر عند موته إلا في الأمة ورمزِها، ولم يوص أهله بالحفاظ على حياتهم، بل ببذل أرواحهم، ولم يوصهم بأخذ حقوقه، بل بالتضحية بحقوقه، وذلك لإدراكه أن مجد الفرد والعائلة ونجاتهما إنما هو في مجد الأُمة وحمايتها.

والواقع أن المسلمين لو تحلوا بهذه العاطفة اليوم أيضا فلن يقدر السيخ ولا الهندوس على مواجهتهم. إنهم يضحكون على السيخ عادة على أنهم أمة غبية، ولكن السيخ يتمتعون بتفكير جماعي، أما هم فمحرومون منه، ولذلك نجد هؤلاء السيخَ القلة قد هزموا المسلمين الكُثر في البنجاب الشرقية.

باختصار، إن التفكير الجماعي شيء ثمين جدا، وعلامتُه أن كل فرد من الأُمة يفكر في مصلحتها، فكلما اجتمع بعضهم في مجلس كان حديثهم عنها؛ فقالوا إن أمتنا مصابة بكذا وكذا من العيوب والنقائص، ويجب علاجها هكذا، وإذا التقى أهل حيّ بأهل حي آخر، كان حديثهم على المنوال نفسه، وإذا اجتمع أهل مدينة بسكان مدينة أخرى تحدثوا عما يهمّ الأمة أيضا، مما يولّد فيهم تفكيرا جماعيا مشتركا، وينفخ في الأمة روحا جماعيةً، فيصبو الجميع إلى هدف واحد. هذه هي العاطفة التي يتمتع بها الهندوس والتي جعلتهم ناجحين. عندما يرفع أبسط هندوسي شكوى ضد مسلم فإن أكبر مسؤول هندوسي في الدوائر الحكومية لا يلبث أن يقول –عندما يقرأ في آخر الشكوى اسما هندوسيا– أن ما يقوله هذا هو الحق، أما إذا رفع مسؤول كبير مسلم شكوى ضد هندوسي فيقول هؤلاء المسؤولون الهندوس إنه على الخطأ ولا بد أن يكون الهندوسي على الحق. أما المسؤولون المسلمون فلو رُفعت إليهم قضية مسلم وهندوسي، فلا بد أن يؤيدوا الهندوسي حتى يقول الهندوسُ إنه مسلم عادل، وإن كان قراره منافيًا للعدل والإنصاف. إنه

يُخالف المسلم إرضاءً للهندوسي، ثم يسمي هذا إنصافا، وذلك لأن المسلمين يفتقرون إلى عاطفة خدمة الأمة، والحق أنهم لم يُهزَموا عند حلول المصيبة الأخيرة هزيمة نكراء إلا لهذا السبب، ذلك أنه عند حلول المصائب الجماعية، لا ينفع العقل الفردي بل العقل الجماعي، ولكن لا يتولد العقل الجماعي عند أفراد الأمة إلا إذا كانت عقولهم جميعا تفكّر تفكيرًا موحَّدا، وتسعى لتحقيق هدف واحد. وقد بيّن الله تعالى الحقيقة نفسها في قوله ﴿أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالدِّينِ﴾.. أي أَخْبِرْني عن الذي ينكر عاطفة خدمة الأمة، فإنه هالك لا محالة. وقد أشار الله تعالى بهذا إلى أن أهل مكة وغيرهم من قبائل العرب يفتقرون إلى العاطفة السليمة لخدمة الأمة، فاتحادهم عابر، وستُري الأيام أنه سيخرج مِن بينهم خونةٌ لأمتهم، أما المسلمون فيتمتعون بعاطفة خدمة أمتهم ويتحلّون بتفكير جماعي، وقد انخرط فقراؤهم وأغنياؤهم في سلك واحد ساعين لتحقيق هدف واحد، وقد أبوا أن يضحّوا به من أجل مصالحهم الشخصية بأي ثمن، لذا فلا بد أن يحالفهم النصر، وينهزم أعداؤهم.

المفهوم الثامن: ومن معاني الدين الورع، الذي يعني السعي لتجنّب الشبهات.. أي أن يتمنى المرء ويسعى جاهدًا لأن يجتنب السيئات والأفعال غير المرضية.

لقد ذكر القرآن الكريم للنفس الإنسانية ثلاث حالات؛ منها النفس الأمّارة المشار إليها في قوله تعالى ﴿إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ﴾.. أي حين تحفز النفس الإنسانَ على السيئات فإنه يعتادها حتى يحبّ الآثام والمنكرات. ومن هذه الحالات الثلاث للنفس ما يسمى النفس المطمئنة، أي حين تصبح النفس راضية وتدرك أن الله تعالى قد خلَقها بمشيئته الخاصة لتحقيق أهداف معينة، وأن ما خلقه الله لها من أسباب هي تناسبها تمامًا، وبتعبير آخر إن مثل هذا الإنسان يرضى بحاله ويطمئن، ولا يعمل كالمجنون الذي يذهب إلى الله مرة وإلى الشيطان أخرى، وإلى الدين تارة وإلى الدنيا أخرى، بل صاحب النفس المطمئنة يرجع إلى الله تعالى ويقيم عنده ولا يتحرك من هناك. والحالة الثالثة للنفس هي ما يسمى بالنفس اللوّامة، فصاحبها يدرك شناعة السيئات فورًا، فيلوم نفسه عند الاقتراب منها فيجتنبها، وإذا ما

ارتكب سيئة تأسفَ واستغفر ولامَ نفسه بشدة، كما يشير إلى ذلك لفظ اللوامة. وهذه الحالة أدنى من الورع، لأن الورع الحقيقي هو أن يمنع الإنسان النفس عن السيئات ويجتنبها.

والنفس اللوامة تسمى عند المثقفين بالإنجليزية (Conscience) وتسمى "الضمير" في لغة الآخرين. والضمير في العربية يعني باطن الإنسان، وصوت الضمير يعني ما تطالبه به الكفاءاتُ الكامنة في باطن الإنسان؛ غير أن الأوروبيين ينكرون الضمير هذا. كانوا في الماضي يرددون كلمة Conscience كثيرًا، أما اليوم فقد وُلد بينهم فلاسفة قالوا بأن هذا الكلام فارغ، إذ ليس هنالك شيء اسمه النفس اللوامة أو Conscience أو الضمير، وإنما هو رَدُّ فعلٍ للعادات والتقاليد؛ فكل ما في الأمر أن المرء عندما يسمع شيئًا يتنافى مع ما اعتاده من عادات وتقاليد بتأثير محيطه فإنه يكرهه. فمثلا لا يأكل الهندوسي لحم البقر، بل لو تكلّم أحد أمامه عن أكله تقيّأَ، أما المسلم فيأكله ولا يجد في ذلك غضاضة، وكذلك الإنجليزي يأكله ولا يجد في ذلك كراهة، فلو كان هذا صوت الضمير فلماذا لا يتقيأ الإنجليزي أو المسلم عند أكل لحم البقر كما هو حال الهندوسي؟ أو خذوا مثلا لحم الخنـــزير، فإن اليهودي والمسلم لا يأكلانه، بل إذا ذُكر أكل لحم الخنـــزير أمامه تقزّزَ، ولكن الإنجليزي أو السيخي لا يجد في ذلك غضاضة، بل يشتهي أكله، فلو كان أكل لحم الخنـــزير أمرًا طبيعيا فيجب أن يرغب في أكله الإنجليزي واليهودي والمسلم والهندوسي كلهم؛ فثبت أن الأمر لا يتعلق بطبيعة الإنسان ونفسه، بل يتوقف على عاداته وتقاليده، فمن اعتاد عدم أكل لحم الخنـــزير يعاف قلبه حتى سماع ذكره، أما من اعتاد أكل لحمه، لم يجد أي غضاضة في أكله ولا ذكره. ولو كان الأمر معاكسًا لكانت النتيجة معاكسة أيضًا، أي لو كان الهندوس معتادين أكل لحم البقر، وكان الإنجليز غير معتادين أكله لتغيرَ الوضع، ولما كره الهندوس أكل لحمه، ولعافَ الإنجليز أكله؛ أما لو كان المسلمون معتادين أكل لحم الخنـــزير لما كرهوا أكله. فثبت أن الأمر لا يتعلق بالطبع والنفس بل يتعلق بالعادة، لأن المرء لا يكره ما اعتاده، إنما يكره ما كان خلاف عادته.

هذا ما يقوله هؤلاء الأوروبيون، وإنه لقول باطل، وإن هذه الأمثلة لا تغيّر الواقع شيئًا. فالسؤال هنا ليس عن لحم البقر أو الخنـــزير، ولا أحد يقول إن أكل لحمهما أو عدم أكله ذو علاقة بالطبع والفطرة والنفس، إنما هي أحكام دينية، وهناك فرق بين أحكام الدين وما تأمرنا به الفطرة. إننا نناقش هنا النفس اللوامة لا الشريعة، وأكلُ لحم الخنـــزير أو البقر يتعلق بالشريعة لا بالنفس اللوامة. نحن أيضا نقرّ أن المسلمين لا يعافون أكل لحم البقر لأنه حلال في شريعتهم، ويكره الهندوس حتى سماع ذكر أكل لحمها لأنه حرام عندهم، أو يعاف المسلمون سماع أكل لحم الخنـــزير لأنه حرام عندهم، أما المسيحيون فلا يعافون أكله لأنه حلال عندهم. هذا صحيح تماما، بل نعترف بأن اعتبار المرء بعض الأمور حسنة وبعضها سيئة بسبب ما يأمره به الشرع، لا علاقة له بالفطرة، إذ هي تفاصيل شرعية يضطر الإنسان لاعتبارها حسنة أو سيئة. إن ما نسمّيه النفس اللوامة هو الضوابط والدوافع الأخلاقية، ولا علاقة لها بالدين والشريعة، بل هي توجد عند كل قوم. نحن نعترف أن النهي عن أكل لحم البقر أو الخنـــزير جاء في شرائع أمم معينة، ولكن الكذب والخداع والرياء ونكران الجميل وخيانة الأمة ليست مخصوصة بأمة معينة. لا شك أن المسلم إذا لم يصلِّ أو لم يصم أخذه القلق، بل إنه يصوم في مرضه أحيانًا بغضّ النظر عما أعطاه الله من رخصة في حالة المرض، كذلك يوجد عند الهندوس أيضًا أنواع الصيام باسم "شراده"، وغيره، كما يأمرهم شرعهم بحرق الموتى، وإننا لا نقول بأنها أحكام طبْعية، فإحراق الموتى ليس حكمًا طبْعيا، بل هو حكم شرعي. ولو أُمر المسلمون بحرق الموتى لفرحوا بذلك، ولو أُمر الهندوس بدفن الموتى لفرحوا بذلك. وإننا عندما نتحدث عن النفس اللوّامة الدافعة إلى الخير حتى وإن لم يكن هناك شريعة، فلا نعني بالخير ما يعتبره الشرع خيرًا، بل نقصد عندئذ الأخلاق الفطرية، إذ لا علاقة لتلك النفس اللوامة أو الضمير بأحكام الشرع، وإنما تتعلق بالحسنات الطبعية الفطرية المسلّم بها عند جميع الأديان. لا شك أن هناك فرْقًا بين دين وآخر من حيث الأحكام، فمثلا يقول الإسلام للمسلم أن يصلي هكذا، بينما تقول الهندوسية للهندوسي عليك أن تتعبد هكذا، ولكن هل تجد دينًا يأمر

أتباعه بألا يصدقُوا القول؟ لا شك من وجود مفتريات وأباطيل في بعض الأديان، ولكنها لن تأمر أحدا بالكذب. ولا جرم أنه قد نُسبت إلى بعض الأديان تعاليم غاشمة، فمثلا يعتقد عامة المسملين اليوم عقيدة بشعة بأن من ارتد عن الإسلام وجَب قتله، ولكن الإسلام لم يعلّم ذلك قط، إنما نسبوه إلى الإسلام باطلا، ومع ذلك لو سألت أيًا من المشايخ ما إذا كان القرآن يأمر بالظلم، لكان جوابه بالنفي. كذلك توجد في الديانة الهندوسية عشرات الأحكام الظالمة، ولكنك لو سألت علماءهم لقالوا جميعا: إنما يعلّم ديننا ألا نظلم أحدا. إذن، فيمكن أن تختلف الأديان في أحكام الشرع، ولكن لا اختلاف عندها عن المُثل الطبعية الفطرية؛ ولن تجد أيًا من أتباع الزرادشتية أو الهندوسية أو المسيحية أو غيرها يقول: إن ديننا يعلّم الإخلال بالأمن والخيانة والكذب والذل. هذه هي الحسنات الفطرية الأساسية، وهي التي تتعلق بالنفس اللوامة، وهي التي توجه نفسُ الإنسان له لومًا بسببها في وقت من الأوقات، فيندم على ما فعل.

كان الخليفة الأول ﷺ طبيبًا حاذقًا وكان الناس من كل الطبقات والشرائح يأتونه للعلاج، فجاءه لص ذات مرةً، فقال له حضرته: ما هذا الإثم الذي ترتكبه؛ تسلب أموال الناس وتأتي بالمال الحرام إلى بيتك؟ فقال: حضرةَ الشيخ، كيف تسمي ما نكسبه حرامًا؟ ومن ذا الذي هو أكثر كسبًا للحلال منا؟ ألا تعلم أننا نخرج لعملنا في جوف الليل واضعين أرواحنا على الأكف والناس يستمتعون بالنوم. فأي شك في أننا نكسب رزقًا حلالا بمشقة وعناء؟ يقول حضرته: فعلمتُ مِن قوله أن فطرته السليمة نائمة الآن، فغيرتُ مجرى الحديث، ثم قلت له بعد قليل وقد نسي ما كنا فيه من حديث: هَلا أخبرتَني كيف تقومون بالسرقة؟ فقال: إن الشخص الواحد لا يستطيع السرقة، وإن ما يأخذه الشخص الواحد من مال الآخر فنسميه اختلاسًا، والمختلس لا نسميه لصا ماهرا. إننا نحتاج من أجل السرقة إلى عدة أشخاص، فأحدنا يتجسس على البيت ويدلنا على مكان المال، أما الآخر فيكون ماهرًا في اختراق الجدار بحيث لا يُحدث صوتًا يوقظ أهل البيت. أما الثالث فيكون ماهرًا في المشي في البيت وفي كسر الأقفال من دون صوت، فيدخل مِن

ثقب الجدار ويأتي بالمال. أما الرابع فيقف خارج البيت ويستلم منه المال. وكل هؤلاء يلبسون سراويل قصيرة جدا ضيقة. أما الخامس فيكون واقفا على ناحية الشارع بلباس الشرفاء، وواجبه أن يراقب ما إذا كان حارس قد اقترب أم لا، وأن يستلم المال من زملائه، وحتى لو انتبه أهل البيت وأثاروا ضجة فلا يشتبه الناس فيه بسبب لباسه. أما السادس فهو الصائغ الذي نذهب بالمال إليه، فهو يفصِل الجواهر واللآلئ والأحجار الكريمة عن الذهب ثم يبيعها، فنتقاسم الأموال بحسب الشروط المتفق عليها. فقلتُ للص: لو أن الصائغ احتال عليكم، وأكل أموالكم التي كسبتموها بشق الأنفس، فماذا تفعلون إذن؟ فاحمرّ وجهه وقال في غضب: كيف يتجاسر على أكل أموال الآخرين بغير حق؟ فقلتُ: هذا يعني أن أكل أموال الآخرين حرام. فانتبه بقولي إلى خطأه، وندم وصمت.

وذات مرة جاء إلى حضرته ﷺ شخصٌ دَيّوثٌ للعلاج، فأخذ في وعظه وقال: لماذا تمارس هذه المهنة النجسة؟ فقال: حضرة الشيخ، كيف تقول إنها مهنة نجسة؟ قال: هل في الدنيا مهنة أشد نجاسةً من هذه؟ تُزوِّجون أولادكم من بنات الآخرين، ثم تجعلونهن يمارسن الزنا في بيوتكم!! قال: حضرة الشيخ، مَن يفقد الحياء حتى يرتزق بدفع بنات الآخرين للزنا؟ إنما نسأل بناتنا نحن، لا زوجات أولادنا، ليكسبن لنا بهذا الطريق؟ (خطبات نور ص٥٣٤: خطبة ١٩١٢/١١/١)

وهذا يعني أنه كان عند هذا الديوث أيضًا الإحساس بالفحشاء رغم ارتكابه هذا الحرام.

فثبت من هنا أن لا علاقة للنفس اللوامة بالأمور التي هي من قبيل العادة والتقليد، بل إنها تختص بالمشاعر الإنسانية التي هي جزء من فطرة الإنسان، وستجد في بلدان العالم كلها صوت واحد بشأنها.

ويقول فلاسفة أوروبا ردًا على ذلك: هذا أيضا خطأ منكم، فإن الأمانة والصدق والإحسان أو الكذب والظلم وما إلى ذلك إنما يعتادها المرء تقليدًا، ولو عوّدت أحدًا الكذبَ لكذب في حديثه وكرِه الصدق، ولو عوّدته الخيانة لاعتادها وكرِه الأمانة. غير أنه لا يُعوَّد على العموم الكذبَ والخيانة فيعافهما بسبب ذلك،

ولكنكم تعتبرون كراهته لهما أمرًا طبيعيا فطريا، مع أنه ليس من الفطرة في شيء، بل هو نتيجة العادة والتقليد.

ونقول في الجواب: هذا أيضًا ليس صحيحا، فنحن أيضا نقرّ أن النفس اللوّامة أيضا يمكن أن تموت في الإنسان، إذ إن النفس الأمارة لن تنشأ إلا بموت النفس المطمئنة؛ فإذا عوَّدْنا أحدًا الخيانةَ أو الكذب فلا بد أن يموت عنده الإحساس بشناعتهما، ولكن الأمر أننا هنا لا نناقش تعويد أحد على فعل، وإنما نتحدث هنا عن المُثل التي توجد في الناس جميعا على حد سواء على اختلاف أديانهم وبلدانهم وأحوالهم وظروفهم، فكيف يمكن أن تُعَدّ هذه نتاج العادات والتقاليد؟ فكم هو شاسعٌ الفرقُ بين لغات أهل القارات العظيمة كآسيا وأوروبا وأمريكا وإفريقيا ومناطق الجنوب والشرق! فأهل الهند وحدها يتكلمون عشرات اللغات. أما عندنا في باكستان فلو سألت البلوشيين لوجدتَ عندهم لغات عديدة، ثم إن لغة القبائل الأفغانية عندنا تختلف عن لغتنا، والحال نفسه فيما يتعلق بأهل البنغال. ولو خرجت من القارة الهندية وجدت بين اللغات اختلافا كبيرا مذهلا، فأهل الصين عندهم لغة، وعند الروس لغة أخرى، والأفارقة عندهم لغات مختلفة تماما، وكذلك الهنود الحمر في أمريكا لديهم لغة مختلفة. وهناك اختلاف شاسع بين الناس من حيث اللغات. أما لو نظرت إلى أديانهم، فتجد فيها اختلافا كبيرا أيضا. فلو زرت إفريقيا لوجدت أديانهم تختلف من منطقة إلى أخرى، ولو ذهبت إلى مختلف الجزر وجدت في أديانها اختلافا كبيرا.

إذن فقد ثبت بطلان قولكم أن الناس إنما يميلون إلى هذه المُثُل الفطرية والقِيَم الطبعية بتأثير تعاليم الأديان. كانت حجتكم أن الناس يكرهون الكذب لأن الدين قاوم الكذب، أو يتحلّون بالأمانة لأن الدين حضّ عليها، ولكنا نقول إن الدين نفسه كان قد دعا الناس إلى الله ورسله وكتبه، ومع ذلك نجد أن الصينيين يقولون عن الدين غير ما يقوله المنغوليون، والأستراليون يقولون ما لا يتفق مع عقائد الهنود الحمر، وهذا هو حال اليهود والنصارى وغيرهم؛ فالسؤال الذي يفرض نفسه هنا هو: ما دامت تعاليم الدين الأخرى كلها قد تغيرت من شعب إلى آخر وبين بلد

وآخر، فلماذا لم تتغير هذه المُثل الأخلاقية عندهم؟ لقد ثبت من هنا بجلاء أن هذه المُثل ليست أحكام الدين، إنما هي مُثل طبيعية مغروسة في الفطرة الإنسانية. إن الأحكام التي كانت تتعلق بالدين قد تغيرت، لكن هذه الأمور الفطرية ظلت على حالها. فاتفاق الناس كلهم في هذه الأمور الحسنة الطبعية واختلافهم في أحكام الأديان واللغات والعادات والتقاليد لدليلٌ بيّن على أن الأمور المتعلقة بالفطرة هي غير التي تتعلق بالشريعة. لقد اختلف الناس في ألسنتهم وعاداتهم وتقاليدهم وظروفهم وأحوالهم في كل مكان في العالم، أما إحساسهم عن الصدق أو الكذب أو الأمانة أو الخيانة فظل على حاله لم يتغير قط. يختلف الناس اختلافًا كبيرا في طريقة حياتهم ومعاملاتهم وعاداتهم عند الزواج والموت، فبعضهم يدفنون موتاهم وبعضهم يحرقونهم، بل يوجد في "جُزر فيجي" أُناس يأكلون آباءهم وأمهاتهم، حيث يذبحونهم عند مرضهم ويأكلونهم ويعتبرون ذلك علامة حب لهم، ويقولون بأن مِن واجبنا أن نأكل لحمهم ولا ندَعه يضيع هكذا. فكم هو كبير هذا الاختلاف بينهم وبين باقي سكان المعمورة! ولكنك لو سألت سكان إفريقيا أو اليابان أو الصين أو سويسرا أو النرويج أو فنلندا أو أحد الهنود الحمر من الأمريكان عن الصدق أو الكذب أو الأمانة أو الخيانة، لقال الجميع إن الصدق حسن والكذب سيئ والأمانة حسنة والخيانة سيئة، وذلك مع اختلافهم في كل شيء من لغة وعادة وتقليد ومعيشة وما إلى ذلك.

فهذا برهان ساطع على أن هذا الصوت هو صوت الفطرة الإنسانية، إذ لم يتغير هذا الصوت رغم تغير الأديان. لقد تغيرت الأمور المتعلقة بالعادات والتقاليد واللغات، ولكن هذه الحسنات الطبعية والمُثل الفطرية لم تتغير عند أحد. إذن، فلماذا لا نستنتج مِن عدم تغيُّر هذه الأمور عندهم –مع تغيُّر العصور والبلدان والأديان– أن هذه العواطف ليست نتاج العادات، بل إن العادات والتقاليد الموجودة عند شتى الأمم هي نتاج هذه العواطف الطبعية الفطرية؟ يقول فلاسفة أوروبا أن هذه العواطف تولدت نتيجة العادات، ولكنا نقول لو كانت هذه العواطف الفطرية نتاج العادات، للزم أن يختلف الناس فيها بتأثير العادات والتقاليد

المختلفة، ولكنا لا نجد بين شتى أمم العالم أي اختلاف في هذه العواطف الطبعية، ولذلك نقول إن شتى العادات القومية هي نتاج هذه العواطف الطبعية وليس العكس.

باختصار، إن الإحساس بحسن الصدق والأمانة والعدالة والإنصاف والرحمة وغيرها من الحسنات الفطرية موجود في كل بلد وعند كل شعب وحتى القبائل البدائية. لقد قمت بمطالعة كتب ضخمة لدراسة أخلاق أهل الأديان والشعوب والقبائل المختلفة، ودرست أخلاق الأمم الحديثة والعتيقة وحتى عادات القبائل التي لا تزال تعيش عارية في الغابات، ولا يَدَعون أحدًا يقترب منهم، وإلا قتلوه بالسهام، فتوصلت إلى أن هناك مُثُلاً أخلاقية يتفق عليها البشر كلهم رغم آلاف الاختلافات الأخرى. لن تجد في هذه المُثل الأخلاقية أي اختلاف بين أهل الدنيا من شرقها إلى غربها. والحق أن هذا الإحساس الموجود عند شتى الأمم عن ضرورة تجنُّب هذه السيئات المعينة إنما هو نتيجة للنفس اللوامة أو ما يسمى Conscience أو الضمير، وليس نتاج العادات والتقاليد القومية. إذن، فكل من يؤمن بقوة النفس اللوامة فلا بد أن يصغي لصوتها ويجتنب السيئة.

لقد قلت بأن الفلاسفة الأوروبيين يقولون بأنه ليس هناك ما يسمى الضمير أو صوت الفطرة الذي يلوم صاحبه على ارتكاب السيئة، بل الحق أن الإنسان يحب ويعمل ما يعمله آباؤه، ويكره وينتهي عما نهوه عنه، وهذا ما أشار إليه الله تعالى هنا وأخبر أنه لا بد وأن يقع في المعاصي ويُحرَم حسناتٍ كثيرة مَن يكذّب بالدين (أي الورع) .. أي مَن ينكر وجود الإحساس الفطري في الإنسان بتجنب السيئات، فقال تعالى ﴿أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالدِّينِ﴾.. أي أَخْبِرْني عن الذي ينكر الورع ويقول إن الإحساس بتجنب المعاصي أو السيئات ليس نتيجة رغبة فطرية موجودة في الإنسان، فمثل هذا لا بد أن يكون ضعيف السيرة ولا بد أن تفسد أخلاقه، أما الذي يؤمن بالورع فسوف يزداد صلاحا يقينًا.

لقد قدم الله تعالى النفس اللوامة في القرآن الكريم دليلا على وجوده تعالى، وأي شك في أن خلق النفس اللوامة في الإنسان تدبير رباني؟ لقد كان الإنسان عرضةً

لشتى الابتلاءات، فلم يُرد الله تعالى أن يتركه من دون حماية، فخلَق في فطرته صوتًا ينبّهه دائمًا. إن صوت الفطرة هذا يجذبه إلى الخير دوما. إن بعض الناس يخرجون بعيدًا في متاهة السيئات، فيجذبهم صوت الفطرة هذا إلى الخيرات ثانية وكأنهم لم يقترفوا السيئات قط، وبعضهم تحيط بهم خطيئاتهم فيُحرَمون الحسناتِ كلية.

لقد أخبر النبي ﷺ أن المرء يتقدم في الحسنات أحيانًا حتى يخيّل أنه لن يقترب من السيئات أبدا، ولكنه فجأةً يصاب بزلّة تدخله في النار، وأحيانا لا يزال يرتكب المعاصي حتى يبدو وكأنه لن يقترب من الحسنات، فيصاب بهزّة ويدخل الجنة (البخاري، كتاب الجهاد). ونجد في الدنيا آلاف الحالات التي تؤكد صدق قول النبي ﷺ. وهذا التغير الفجائي لا يكون نتيجة لأمر غير طبيعي، بل يكون وراءه سبب طبيعي حتما، ألا وهو هذه القوة التي زود الله تعالى بها كل إنسان، فهي التي تجذبه وتعمل هذا العجب العُجاب.

يُروى أنه كان يسكن في جوار وليّ من أولياء الله تعالى أحدُ عِلية القوم الذي كان شغله الشاغل التمتع بالرقص والغناء وشرب الخمر، وكان يتفاخر بعلاقاته مع المِلك وكبار المسؤولين قائلا بأنه لا أحد يقدر على منعه من ذلك. فنصحه الرجل الصالح كثيرا، ولكنه لم ينتصح وظل يقول له: لن تستطيع منعي من هذا. وكان يشوِّش عليه الصلاة والعبادة باشتغاله بالرقص والغناء طول الليل، فضاق منه الرجل الصالح ذرعًا وهاجر إلى مدينة أخرى. وذات مرة ذهب الرجل الصالح للحج، فوجد هذا الزعيم يحج بيت الله الحرام، فذُهل وقال في نفسه: كيف جاء هذا الملحد الشرير هنا؟ فتقدم وصافحه وسأله: كيف جئتَ للحج وقد تركتُ مدينتي بسببك، إذ كنت تشوِّش عليّ صلواتي وتحول دون استمتاعي بالتهجد وتركيزي في أدعيتي باشتغالك بالرقص والغناء طول الوقت حتى تركت المدينة بسببك؟ لقد قرأتُ عليك القرآن، ووعظتُك بالحديث، فلم يُجْدِك وعظي نفعًا، فكيف جئت اليوم لحج البيت؟ فأجاب وقال: كل ما تقوله صحيح تماما، ولكن الله تعالى قد جعل لهداية كل إنسان موعدًا. فبينما كنت أستمتع مع النَّدامى والأصدقاء بشرب الخمر بعد عصر يوم على سقف بيتي، ونتعاطى الكأس تلو الكأس، مستمتعين بألحان

الموسيقى، إذ مر شخص بالشارع وهو يقرأ قول الله تعالى ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ﴾(الحديد:١٧)، فما إن تناهى صوته إلى مسامعي حتى ارتجف قلبي وصرخت باكيًا، وأمرت بكسر أواني الخمر وقلت لأصدقائي أن يذهبوا من عندي. لم أدرِ ما إذا كان الشخص المار بالشارع هو الذي كان يقرأ آية من القرآن أم أن الله تعالى هو الذي أَطَلَّ من السماء وهدَّدني قائلا: ألا ترتدع عن المعاصي؟ فقمت بتوبة صادقة وكانت نتيجتها أنك تراني اليوم هنا (تذكرة الأولياء ص ٤٩-٥٠).

إذن، فالضمير لا يموت، ولكنه يصبح ممسوخًا أو مشوَّها. إن الضمير يمكن أن يُدفَن تحت المعاصي، ولكنه لا يمكن أن يموت أبدا. إنه لا ينفك يهزّ الإنسان ويوقظه، فأما مَن استمع لندائه و لم يقتلْه انفتح أمامه طريق الخيرات فلا يزال يمضي فيه قُدمًا، وأما مَن قتل ضميره فسيقع في المعاصي حتمًا، ولذلك قال الله تعالى ﴿أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالدِّينِ﴾.. أي أَخْبِرْني عن الذي ينكر صوت الضمير ويقول إنه مجرد وهْم، فستجد أن مثل هذا الشخص يقع في أنواع المساوئ ويُحرَم من الحسنات، لأنه قد دمَّر الوسيلة التي تؤدي إلى الحسنات.

المفهوم التاسع: ومن معاني الدين العادةُ. والحق أن العادة أيضًا تساعد على تجنب السيئات كثيرًا، ولكن ليس المراد هنا مجرد العادة، بل عادةُ فعل الحسنات. وكما هو واضح من السياق، فليس المراد أن من اعتاد أَكْلَ اللحم لن يظلم اليتامى، ومن اعتاد ارتداء اللباس الإنجليزي حُفظ من السيئات. هذا كلام فارغ. لقد بين الله تعالى هنا أن الذي يُقرّ أن للعادة دخلا كبيرا في رقي الإنسان وأنها تساعده على المضيّ قُدمًا في الحسنات وتجنُّب السيئات، فلا بد أن يحرز التقدم، أما الذي لا يسلّم بما في العادة من فوائد جمّة، فلا بد أن يقع في السيئات ويُحرَم الحسنات.

واعلمْ أن القرآن الكريم هو الكتاب الوحيد الذي قدّم الفلسفة القائلة بأن كل الكفاءات الكامنة في فطرة الإنسان إنما هي لفائدته ونفعه ورقيه. إن القرآن الكريم لا يعتبر أيًا من العواطف الفطرية في الإنسان لغوًا وعبثًا، بل يعلن بإصرار أن كل

عاطفة فطرية فيه إنما خُلقت لحكمة ما ولفائدته. والقرآن الكريم حافل بهذا الموضوع، إذ يعلن مرارًا أن الله تعالى لم يخلق أي شيء عبثًا، بل في كل شيء فائدة للناس، وقد ذكر بعض الأمثلة على ذلك، ومنها أن الموت الذي تخافونه لا يخلو من فائدة، والابتلاء الذي تخشونه أيضًا فيه منفعة، فهو يعلن بإصرار وتكرار أن الله تعالى قد خلق الأشياء كلها لمنفعة الإنسان وليس لضرره، إنما يصيبه الضرر نتيجة استعماله الخاطئ لها. ذات مرة جاءت النبيَّ ﷺ عباءةُ حرير، فدعا عمر رضي الله عنه وأهداها له، فجاء عمر إلى الصلاة وهو يلبسها، فلما رآه النبي ﷺ علت وجهَه أمارات السخط وقال له: كيف لبستَ لباس الكافرين؟ قال: يا رسول الله، أنت الذي أهديتني إياها، ثم تسخط عليّ حين لبستُها؟ قال ﷺ: يمكن أن تُهديها لزوجتك أو بعض بناتك، فمتى أمرتُك أن تلبسها؟ (البخاري، كتاب اللباس والزينة)

إذن، لم يخلق الله في الدنيا شيئا إلا وفيه فائدة للإنسان، غير أن كل شيء يجب أن يستخدم في محله. خُذ الذهب مثلا، فإن الله تعالى هو الذي خلقه، ولكنه قال أيضًا في القرآن الكريم بأن الذين يكنـــزون الذهب سوف يُحمى عليهم وتُكوى به أجسادهم يوم القيامة. وهنا إشكال في الظاهر، حيث خلق الله ﷻ الذهب، ثم أعلن أيضًا أنه سيعاقب على كنـــزه! وليس جواب ذلك إلا أن الله تعالى لم يخلق الذهب ليكنـــزه الناس، بل لكي يتداولوه في تجاراتهم واقتصادهم، أو يستعملوه في الصناعة وفي جبر العظام والأسنان، إذ هو أقلّ المعادن تآكلاً. إذًا فلم يخلق الله تعالى الذهب لكي يصنع منه الناس حُليًّا ويكنـــزوه، إلا الحُليّ القليل الذي تستعمله المرأة للزينة.

باختصار، لقد خلق الله تعالى الأشياء كلها لمنفعة الإنسان، ومِنها العادة التي هي وثيقة الصلة برقي الإنسان.

يزعم البعض أن العادة –حسنة كانت أو سيئة– شيءٌ سيئٌ، وحجتهم هي: كيف يُثاب المرء على العمل إذا قام به عادةً؟

والحق أنه قول باطل، لأن العادة هي مِن نعم الله العظمى. إنها تسهّل على المرء رحلة الخير جدًّا، ولولاها لصعبت هذه الرحلة. إن العادة تسهل للمرء كل عمل تال. هناك مثل عربي يقول: العَود أحمدُ.. أي عليك أن تعيد عملك، لأنك كلما أعدته أتقنتَه. فمثلاً لو أخذتَ الإبرة والخيط لتخيط ثوبًا بسيطا جدا، فلربما استغرقتْ خياطته خمسة أيام، وتكون الخياطة معوجّة غير سليمة، بينما سيخيطه الخيّاط في بضع ساعات. فما الذي يميّز الخيّاط عليك؟ إنما هي عادته للخياطة. والحال نفسه فيما يتعلق بالأعمال الأخرى. يقول الناس إذا تعلّمَ المرء ركوب الدراجة فلن ينساها، ولكني نسيتها، فقد حاولت ركوبها في بيتي بعد سنوات طويلة، فسقطت على الأرض، بينما لم أنسَ السباحة، لأنني معتاد عليها، وذات مرة سبحتُ في النهر بعد انقطاع خمس وعشرين سنة عن السباحة، وتابعتُ حتى قطعتُ ثلاثة أميال. فسواء السباحة أو ركوب الدراجة أو أي عمل أو مهنة أخرى، فإن الماهر فيه هو الذي يسبق الآخرين؛ وليس ذلك إلا لأنه معتاد عليه. يسأل الناس دائمًا عن السائق الماهر أو الطبيب الماهر والجراح الماهر والمعلّم الماهر. فمن هو السائق الماهر؟ إنما هو من اعتاد قيادة السيارة مدة طويلة. ومن هو الطبيب الماهر؟ إنما هو من اعتاد معالجة الناس مدة طويلة. ومن هو الجراح الماهر؟ إنما هو من اعتاد الجراحة زمنًا طويلا. ومن هو المعلّم الماهر؟ إنما هو من اعتاد التدريس سنوات وسنوات. ومن هو الطباخ الماهر؟ إنما هو من اعتاد الطبخ مدة من الزمن. لا شك أن العقل أيضا يلعب دورًا كبيرًا في إتقان شتى الأعمال، ولكن للعادة دخل أكبر فيها. إنما يصبح المرء ماهرا متقنا لأي عمل أو مهنة أو فن نتيجة العادة، ولولا العادة لما أتقنه.

فالقول إن العادة شيء سيئ لهو الغباء والحمق. كلا، بل إنها من نعم الله العظمى. يقال بالفارسية:

"کسبِ کمال کُنْ که عزیزِ جهاں شوی"

أي: عليكَ الحذق في عملك ليحبّك الناس.

وهذا أيضا يعني أن على المرء أن يعتاد الشيء.

باختصار، إن ازدهار أي عمل أو حرفةٍ منوطٌ بالعادة. إن كل عمل تقوم به يسهّل عليك عملاً مماثلاً آخر. قال النبي ﷺ إذا عمل الإنسان خيرا جعلت الملائكة على قلبه نكتة بيضاء، وإذا عمل سيئة جعلت على قلبه نكتة سوداء، ولا تزال هذه النكت تزداد، حتى إذا غلبت عليه النكت البيضاء حُفظ من السيئات، وإذا غلبت عليه النكت السوداء حُرم الحسنات وخُتم عليه (مسلم، كتاب الإيمان).

وهذا القول النبوي أيضا يعني أن اعتياد المرء على الخير يكرّه إليه السيئة بالتدريج حتى يصبح ارتكاب السيئة عنده بمنزلة إخراج السمكة من الماء وإلقائها على اليابسة، أو يعتاد السيئة لدرجة يصبح فعل الخير عنده بمثابة إلقاء السمكة خارج الماء، فإذا دُعي إلى الخير ذُهل و لم يقوَ على التقدم خطوة واحدة. وليس سبب هذا سوى العادة.

إن الجيش أهم مؤسسة في الدولة، ولكن لماذا يكون الجندي شجاعا يا ترى؟ إنما سببه اعتياد استخدام السلاح. لقد هُزم جنود "نابليون" أمام جنود الإنجليز في معركة "واترلو" بسبب خطأ بسيط ارتكبه أحد قادته. كان قائدًا باسلا، ولكنه ارتكب خطأ فاحشا، لقد أمره نابليون بالرحيل قبله للاستيلاء على جبل "واترلو"، فخرج و لم يزل يتقدم حتى وصل أسفل الجبل، فأشفق على جنوده المرهقين وأمرهم بالاستراحة بجانب الجبل، وفكّر أنه سوف يستولي عليه في الصباح. ولكنه أبلغَ نابليون أنه قد استولى على الجبل. فجاء الجنود البريطانيون واستولوا على الجبل تحت غطاء الليل، وفي الصباح لما علم القائد الفرنسي ذلك أراد تنفيذ أوامر قائده الأعلى، فلم يزل يشنّ الهجمة بعد الهجمة على الجنود الإنجليز، ولكن لم يُجْدِهِ هذا شيئًا، بل أهلكَ جنوده كلهم. وعندما وصل نابليون إلى الجبل اضطر لقتال الإنجليز بنفسه ومُني بالهزيمة، لأن الإنجليز كانوا على الجبل. وكانت الكتيبة التي بعثها نابليون للاستيلاء على الجبل مِن كتائبه المفضلة، فلما نفدتْ ذخائرها بالهجمات المتكررة وهُزم الجيش الذي فيه نابليون، مرَّ بهم شخص وقال: قد هُزمتم فلماذا لا

تهربون؟ فأجاب: لم يعلّمنا نابليون الفرار من القتال، وبتعبير آخر كان قد عوّدنا القتال لا الفرار.

(Napoleon as a Military Commander by General Sir James Marshall – B.t p.62,96 Cornwall)

فثبت أن العادة من أهم القوى الموجودة في الدنيا. والحق أن التأقلم اسم آخر للعادة. فلو عوّدنا الأشجار على النمو في أرض معينة تأقلمت فيها واتصفت بخصائص جديدة بتأثير البيئة الجديدة وأتت بأجود الثمار. وهذا هو حال الحيوانات أيضا. كذلك لو حاولنا تعويد الناس على عادات جديدة لأخرجنا أناسًا من نوع جديد متطور. ولو حاولنا خلق عادات طيبة في نسلنا آخذين في الحسبان قانون العادة، لأخرجنا أجيالاً من الطراز الأعلى. إن خلق الإنسان الأمثل (The Superman) ممكن شريطة أن يتدبر الناس في فلسفة العادة ويسعوا لاستيعاب حقيقتها، ولكن المؤسف أنهم يتركون أجيالهم من دون حماية ورقابة كالأشجار النابتة تلقائيا، والنتيجة أن الأب إذا كان صالحًا خرج ابنه فاسدا. ثم إن العادات الطيبة تتولد بتأثر المجتمع الطيب. إن أكثر الناس صلاحًا سيفشل في تربية أولاده حتمًا إذا لم يتيسر لهم محيط طيب، وإذا لم يكن أفراد المجتمع متحلّين بأخلاق عالية وعادات سامية. ولو أن الأمة كلها أصلحت عاداتها لجاء النسل التالي من الطراز الأول أخلاقا وسيرة، متحليًا بعاطفة خدمة الملة، فلن تقدر أية أمة في العالم على مواجهتهم.

والأمم الأوروبية تضع هذا الأمر في الاعتبار في مدارسها خاصة، وتسعى لتطوير السلوك القومي. فكلما تحدَّث الأوروبيون عن العدل قالوا: هذه هي الحضارة المسيحية، أو هذا ما تقتضيه الحضارة المسيحية؛ وهم يعنون بذلك أن هذا ما تقتضيه المكانة العالية التي بلغتها أوروبا في مجال الأخلاق في العصر الحاضر. الحق أن الأوروبيين لم يبلغوا حتى أدنى المستوى الخلقي الذي يصبو إليه الإسلام، ومع ذلك لا يبرحون يرددون مصطلح الحضارة المسيحية حتى مُلئ الآخرون رعبًا منهم، فقد كان بعض المسلمين أيضًا يقولون في خطبهم خلال الحرب العالمية الماضية

(الثانية) إن الألمان يتصرفون تصرفات تخالف الحضارة المسيحية. والحق أن هؤلاء القائلين لم يفتحوا الإنجيل ليقرءوا ما فيه، ومع ذلك يثيرون ضجةً حول الحضارة المسيحية. المهم أن الأمم الأوروبية تسعى دائما لخلق الإحساس بالتفوق القومي عند شبابهم لإثبات تفوقها القومي، ولذلك اخترعوا هذا الاصطلاح، ولكن بعض المسلمين الحمقى يقلّدونهم ليثبتوا أن الأخلاق الإسلامية أدنى من أخلاق الأوروبيين.

فثبت من هنا أن العادة قوة عظيمة، والأمة التي تستوعب هذه الحقيقة تجلب منافع كثيرة، والتي لا تدركها تترك شبابها من دون رقابة فيفسدون. كذلك فإن الفرد الذي أدرك أن العادة نعمة عظيمة سعى للانتفاع منها أكثر فأكثر، أما الذي لم يدرك ذلك حُرم الحسنات.

الواقع أن الله تعالى لما خلق الإنسان في هذا العالم خلَق آلاف الفرص للحسنات، وإذا تصرف المرء بطريق خاطئ صارت سيئات. فلو تفحّصنا أحوال الناس تبين أن بعضهم قادرون على حسنات معينة، ولكن لا قدرة لهم على حسنات أخرى. أمعنوا النظر في حالكم أنتم، فإن منكم من يكذب فورًا، ولكن لا يخون أبدا، ومنكم من لا يتردد في أكل مال الآخرين، ولكن لا يكذب الحديث، ومنكم من لا يشتم أحدا، ولكن لا يتردد في لطمه. ومنكم من لا يضرب أحدا، ولكنه لا يتورع عن شتم الآخرين، ومنكم من هو واقع في عيوبٍ هي نتاج الرفق الزائد عن اللازم، ومنكم من هو متورط في نقائص تتولد من العنف، فمع أن الرفق والعنف أمران فطريان، لكنهما يؤديان إلى نتائج مختلفة في مواطن مختلفة. إن القويّ سيتقدم للقيام بعمل يتطلب القوة، ولكن إذا تطلب الموقف الرفقَ فلن يرفق، أما صاحب الطبع اللين فسيعمل ما يتطلب رفقًا، ولكنه لن يستطيع فعل شيء إذا استدعى الأمر المواجهة بقوة. وكان النبي ﷺ يدرك هذه الأمور جيدا، فكان يعامل كل إنسان بحسب طبعه. فعند صلح الحديبية جاء للتفاوض مِن قبل الكفار زعيم كان للهَدْيِ وقعٌ كبير في قلبه، فلما علم النبيُّ ﷺ بقدومه أمر بعرض كل الهديِ من إبل وغيرها ليراها في طريقه وهو قادم. فلما رآها واقفة قال: ما هذه الأنعام؟ فقال الصحابة:

إنها الهديُ جئنا بها. فتأثر من هذا المشهد، فلما رجع إلى قومه قال: يا قوم، اسمحوا للمسلمين بدخول مكة حتى لا تضيع هذه الهَدْي.كان الرجل يحبّ الحرب والقتال، ولكنه لما رأى هذه الهديَ المجلوبة باسم الله تعالى، لم يرضَ أن تضيع ولا تُذبَح باسمه تعالى.

وقد قال سيدنا عمر ﷺ في هذا الموضوع: إذا قال لك أحد أن جبل أُحد قد تحرك من مكانه فصدِّقه، ولكن لا تصدق من قال لك إن فلانا قد تغير طبعه وفطرته. إنّ هذا صحيح تماما؛ إذ يسهل على المرء فعلُ ما يتفق مع طبعه، ويصعب عليه فعلُ ما لا يتفق مع طبعه. ألا ترون فيمن حولكم أن بعض الناس يتبرع بسخاء، ولكن إذا حانت الصلاة تهرّب، وبعضهم يصلي الصلاة في موعدها، ولكنه يبكي إذا دُعي للإنفاق في سبيل الله تعالى، وبعضهم يضحي بكل ما عنده في سبيل الله، ويهاجر من وطنه، ولكنه إذا دُعي إلى القتال طار قلبه خوفًا. لم يشترك حسان بن ثابت ولا أبو هريرة في قتال، وفي غزوة الأحزاب كان حسان بن ثابت يقوم بواجب حراسة النساء، فجاء يهودي إلى تحمُّعهن للتجسس، فقالت صفيّةُ عمّةُ النبي ﷺ: اقتلْه يا حسان، فهو جاسوس على ما يبدو، فقال لها: اقتليه إن شئتِ، فأنا لا أستطيع ذلك. فأخذتْ خشبة وضربت بها رأس اليهودي فسقط على الأرض مغشيا عليه، وانكشفت عورته، فحولت صفية وجهها وقالت لحسان: لقد سقط مغشيا عليه فاقتلْه الآن. قال: لا يا سيدتي، فلا يزال به حياة، فأخاف أن يهاجمني، فاقتليه أنت. فوضعت على وجهها خمارا، وقتلت اليهودي بالخشبة. (البداية والنهاية: غزوة الخندق)

هذا لا يعني أن حسانًا لم يكن من المؤمنين- والعياذ بالله- كلا بل كان من كبار الصحابة المخلصين، ولكن القتال كان خلاف طبعه.

فثبت من هنا أن ما توافقَ مع طبع المرء سهل عليه القيام به، وما لم يتفق مع طبعه ومزاجه صعب عليه فعلُه. وليس علاج هذا الضعف إلا العادة. فمثلاً إذا كانت هناك ١٠٠ حسنة و١٠٠ سيئة، وكانت ٥٠ من الحسنات والسيئات موافقة لطبعك، و٥٠ منهما خلاف طبعك، فسوف يصعب عليك التصرف تجاه

هذه الخمسين، وستحتاج إلى بذل جهد كبير فيها. والواضح أنك لن تستطيع القيام بها أو تجنُّبها إذا لم تساعدك قوةٌ كقوة الطبع. فأنت بحاجة حتمًا إلى سلاح يساوي الطبع قوةً لتستعين به، وهذا السلاح هو العادة. فعندما تستعين بها يسهل عليك فعل الخيرات وتجنُّب السيئات التي لا توافق طبيعتك.

لا يزال بين الناس جدال فيما إذا كان الطبع أقوى تأثيرًا من العادة أم العكس. هناك قصص غريبة بهذا الشأن؛ يقال أنه قد جرى بين المهراجا رانجيت سنغ وزوجته نقاش فيما إذا كان الأصل أشد تأثيرا من الصحبة أم العكس –والمراد من تأثير الأصل هنا الطبع، ومن الصحبة العادةُ– كانت زوجته تقول إن الطبع أقوى تأثيرا من العادة، وكان زوجها يرى العكس. فقرّرا أخيرًا أن يقوما بتربية طفل من عائلة تسمى "ميراثي"●، فقاما بكفالة ولد ميراثي وغيّرا محيطه تمامًا وألحقاه بالمدرسة، وبعد مضيّ سبع أو ثماني سنوات أراد المهراجا أن يختبر ما إذا كان طبع هذا الطفل أقوى من عادته، فوضع طعامه في حذاء بالٍ متكسر ملفوف بمنديل بدلاً من أن يضعه في صينية جميلة، فلما رجع الولد من المدرسة وأراد أن يأكل، أزال الغطاء عن طعامه، فأخذ يبكي بكاءً مرًّا، فلم يلبث المهراجا أن قال لزوجته: انظري، لقد ثبت أن العادة أقوى تأثيرا من الطبع، فلأنه قد تربى عندنا نحن الشرفاء فقد آذاه ما فعلناه به من مزاح سخيف. فقالت زوجته: دَعْنا نسأله عن سبب بكائه. فلما سئل قال: لقد أكلتم رغيفين وأعطيتموني رغيفا واحدا. فقالت: ألم تر أن الطبع أقوى من العادة، فإن طبعه الذي ورثه من عائلته الخسيسة لم يتغير رغم عيشه بيننا سنوات طويلة.

الواقع أن الطبع قوة عظيمة، ولكن إذا كان في الدنيا شيء يمكن أن يبعد الإنسان عن طبعه فإنما هو العادة. إذا لم نستخدم سلاح العادة فيقول الإنسان اللين الطبعِ إنني لا أستطيع القيام بما يتطلب شدةً، لأن هذا خلاف طبعي، ويقول غيره إنني لا أستطيع هذا العمل لأنه لا يتفق مع طبعي الشديد.

● عائلة "ميراثي" تُعتبر من الطبقات الدنيا في القارة الهندية. (المترجم)

كان سيدنا عمر ﷺ يسلّ سيفه فورًا على كل صغيرة وكبيرة، بل كان يقول للنبي ﷺ يا رسول الله، لو أمرتَني لقتلتُ فلانا، ولكن عمر هذا قد لانَ بتأثير تعليم الرسول ﷺ، لدرجة أنْ قال الصحابة إنهم لم يروا في زمن خلافته أحدًا هو أشد بكاء منه على كل صغيرة وكبيرة. الواقع أن طبعه لم يتغير بل كان هُوَ هُوَ، إنما تمكّنَ من ترويضه بسلاح العادة.

نعترف أن الأولاد يصابون بكثير من المفاسد بتأثير الوالدين والبيئة الفاسدة والتعليم الفاسد، ولكن الله تعالى قد جعل إزاءه العادةَ، فما تعتاده يصبح سهلاً عليك. وعلى سبيل المثال، إن الإنسان يكره المرارة بفطرته، والخمر مُرٌّ، ولكن إذا شربها أسبوعين اعتادها ولن يشعر بمرارتها مطلقا، بل استمتع بها. ولذلك يذكّرنا الله تعالى هنا أنه قد خلق لنا سلاح العادة للقضاء على السيئات. لا شك أنكم تعافون بعض السيئات وتكرهونها طبعًا، فتجتنبونها بسهولة، أما السيئات الأخرى فعليكم أن تعوّدوا أنفسكم على تركها. فاسعوا للإقلاع عن سيئة معينة، فسوف تعتادون ترْكها حتى تتخلصوا منها نهائيًا. وهكذا السيئة الثانية والثالثة، وفي الأخير تتخلصون من جميع السيئات شيئا فشيئا.

من أجل ذلك قال سيدنا المسيح الموعود عليه السلام: إن على المسلم أن يعاهد على ترك سيئة معينة في رمضان في كل مرة، فما دام قد ترك طعامه وشرابه لله تعالى فلِمَ لا يسعى لتجنب تلك السيئة أيضا؟ ثم إذا حل عليه شهر رمضان التالي عاهدَ على ترك سيئة أخرى، وهكذا سوف ينسلخ من كثير من السيئات بعد بضعة أعوام. وهذا القول أيضا يماثل تعويد المرء نفسه شيئًا، لأنه إذا عاهد في هذا الشهر المبارك على ترك سيئة معينة فسوف يعتاد تركها، وهكذا يتطهر من المعاصي كلها في نهاية المطاف.

يقول البعض إن ما يفعله المرء من خير على سبيل العادة فهو ليس خيرا حقيقيا.

هذا قول باطل. صحيح أن ما يفعله المرء من خير كعادةٍ لا يُعَدّ خيرا في ظرف معين، ولكنه خير في ظرف آخر. إذا اعتاد المرء عملاً قبل بلوغه سنّ الرشد ثم لم يجد فرصة التدبر فيما اعتاده وإدراك كنهه، فلا شك أنه لا يُعتبر حسنةً حقيقية.

فمثلا لو اعتاد المرء في صغره صِدْقَ القول وأداء الصلاة، ثم لم تُتح له فرصة التدبر فيما يفعله، ولم يفعله عن بصيرة وفهمٍ واستيعاب، بل فعَله تقليدًا وعادةً فحسب، فأعماله هذه تُعتبر مجرد عادة، أما الذي يعتاد فعل الخير عن إرادة ووعي ويسعى لفعل الخير ولتجنُّب السيئة، فعادته تُعَدّ ثمرةً لجهوده، لأن المرء يكافأ دائما على العمل الحسن. ذلك أن الشخص الذي اعتاد الكذب في صغره لا بد أن يعاني كثيرًا في ترك الكذب لو أراد تركه، ولكنه لو واصل سعيه هذا واعتاد الصدق أخيرًا بعد أن ألقى نفسه في خطر بسبب صدق القول مرات ومرات، فلا بد أن تُعَدّ عادته هذه ثمرةً لجهوده، إذ كيف يمكن أن يُحرَم أحدٌ ثمارَ جهوده؟

فثبت من هنا أن السيئة التي يقلع عنها المرء بجهوده، أو الحسنة التي يعتادها بإرادته القوية وبجهوده المتكررة، هي عملٌ حسن لا بد من استحسانه وتقديره، ومن الخطأ القول أن الحسنة التي يعتادها المرء ليست حسنة. ما دام قد اعتادها بعد جهود متكررة، فكيف يُحرم من نتيجتها؟ ومن أجل ذلك قال الرسول ﷺ مَن نام وهو يدعو الله تعالى فقد بات الليلة كلها في دعاء وعبادة (مسلم: كتاب الرؤيا). ذلك أن في كل إنسان ما يسمى (subjective mind) أي العقل الباطن.. الذي يعمل كخزينة لعقله، وإذا نام المرء وهو يدعو الله تعالى فلا يزال عقله الباطن يعمل خلال نومه. والظاهر يقتضي أن لا يُثاب على دعائه هذا الذي يقوم به نائمًا؛ حيث إنه لا يدعو به عن إرادة، إلا أنه يثاب عليه بالفعل لأنه نتاج الدعاء الذي قام به في يقظته.

المفهوم العاشر: ومن معاني الدين القضاءُ، وعليه فقوله تعالى ﴿أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالدِّينِ﴾.. يعني أَخْبِرني عن الذي يكذّب بقضاء الله، فسوف تجد أنه يدُعّ اليتيم.

ليس المراد من قضاء الله تعالى هنا ما يعتقده بعض المسلمين اليوم وما يعتقده أهل الأديان الأخرى مِن أن الله تعالى قد خلق كل إنسان مجبورا، وأنه هو الذي جعل البعض مؤمنا والبعض كافرا، أو عالما أو جاهلا، أو بصيرا أو أعمى، أو

ضعيفا أو قويا، وأن الإنسان لا يقدر على تغيير حالته. إن القبول بهذا المعنى يجعل هذه الآية عبثًا ولغوًا. إذا كان الإنسان قد خُلق مجبورا ويسير بحسب القانون الإلهي ولا يستطيع مخالفته، فكيف يقال هنا أَخْبِرْني عن الذي يكذّب بقضاء الله وقانونه، فإنه مجرم كبير؟ الواقع أن قضاء الله هنا يعني ما أشار الله تعالى إليه في قوله ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنْسَ إِلا لِيَعْبُدُونِ﴾(الذاريات:٥٧). فليس المراد من قوله ﴿لِيَعْبُدُونِ﴾ أن يؤدوا العبادات الظاهرة، بل المراد أن يكونوا عبادا لله حقًّا حتى يتجلّى الله على قلوبهم فعلاً. لو كان المقصود من قوله تعالى ﴿لِيَعْبُدُونِ﴾ العبادات الظاهرة، فلماذا قال في مكان آخر ﴿فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ * الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلاتِهِمْ سَاهُونَ﴾؟ مما يعني أن بعض الصلوات تصبح لعنة لأصحابها، وبعضها تصبح رحمة لهم. فثبت من هذا أن الحديث هنا ليس عن العبادات الظاهرة، بل المراد أن تنعكس صفات الله تعالى في الإنسان، فيصبح مَظْهرًا لصفاته تعالى فعلاً. هذا هو الهدف من خلق الجن والإنس، وهذا هو قَدَر الله تعالى وقضاؤه المذكور في قوله تعالى ﴿لِيَعْبُدونِ﴾. وقد ذكر الله تعالى هذا الهدف أو القضاء حصرًا، لأنه إذا جاءت "إلا" بعد "ما" في جملة فإنها تفيد الحصر. إذن، فقوله تعالى ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنْسَ إلا لِيعبُدونِ﴾ يعني أنه هذا هو الهدف الوحيد وراء خلقهم، وليس هنالك هدف آخر.

كما أن قوله تعالى ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنْسَ إِلا لِيَعْبُدُونِ﴾ لا يعني أيضًا أنه خلَقهم ليصبحوا مخلوقاته؛ فما دام قد خلقهم فعلاً وهم مخلوقاته بلا ريب، فلماذا يطالبهم أن يصبحوا مخلوقاته؟ فثبت أن مفهوم هذه الآية هو أن يصبحوا عباد الله الحقيقيين، وبتعبير آخر أن يسعوا جاهدين لتنعكس فيهم صفاته سبحانه، فيصبحوا عباده المؤمنين المخلصين الصادقين. هذا هو قضاء الله، وإليه قد أشار تعالى بقوله ﴿أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالدِّينِ﴾، لأن الذي ينكر قضاء الله هذا يستحيل أن يكون من الصالحين، بل لا بد أن يقع في أفعال نجسة. أما الذي يدرك قضاء الله هذا، ويعلم ويوقن أنه لم يُخلق إلا ليكون عبدًا مؤمنا مخلصًا لله تعالى، فلا بد أن يصلح

نفسه، إذ يؤمن أنه قادر على التغلب على السيئات، لأن غاية خلقه أن يكون من الصالحين.

الواقع أن الإثم يزداد نتيجة القنوط؛ والذين يصيبهم اليأس تضعف فيهم قوة المقاومة، فينهارون أمام الشيطان. يوجد في الدنيا آلاف من الناس الذين يقولون إن الله تعالى لم يحدد لنا طريقًا للنجاة، فيصابون بالقنوط. يقولون ما دام الله تعالى لم يرد لنا طريق النجاة فما الفائدة من مقاومة السيئة؟ الحق أنهم يظنون لغلبة السيئات عليهم أنه لم يبق أمامهم طريق للنجاة، فلا يسعون للإصلاح حقًا.

يقول الله تعالى ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا وَلَكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾(السجدة:١٤).. أي لو أراد الله تعالى تنفيذ مشيئته لجعل الجن والإنس كلهم عبادًا مخلصين له، وهداهم جميعا، ولم يتركهم لينحرفوا عن سبيل الهدى. إنه تعالى لم يخلقهم ليصبحوا لصوصا وقطاع طرق، بل ليصبحوا عبادا له مخلصين. غير أن الله تعالى قد أوضح أيضا أن له قانونا آخر يجب أخذه في الحسبان وهو ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾.

يخطئ بعض الناس في فهم هذه الآية فيظنون أن الله تعالى قد قرّر قرارًا مبرمًا أن يُدخل الناس والجن كلهم في النار، مع أن الآيات الأخرى تبطل هذه الفكرة، فقد قال الله تعالى ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ﴾.. أي أن له جنة في الدنيا وجنة في الآخرة. فمتى يدخل مثل هذا الإنسان النار؟ فهناك مرحلتان فقط: الدنيا والآخرة، فما دام سيدخل الجنة هنا ويدخلها هنالك أيضا، فمتى يدخل النار؟ فالمذكورون في هذه الآية لن يدخلوا النار. فكيف يصحّ إذنْ أن يفسَّر قوله تعالى ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ أن كلّ فرد من الإنس والجن سيدخل النار؟

كذلك يقول الله تعالى ﴿يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ * ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ رَاضِيَةً مَرْضِيَّةً * فَادْخُلِي فِي عِبَادِي * وَادْخُلِي جَنَّتِي﴾ (الفجر:٢٨-٣١). وقوله تعالى ﴿ارْجِعِي﴾ إما يتعلق بهذه الحياة الدنيا أو بالحياة بعد الموت، ولا يمكن أن يتعلق بفترة أخرى. وما دام هذا الإنسان قد رضي عن الله تعالى ورضي الله عنه في هذه الدنيا، فكيف يدخل النار؟ وما دام سيقال لهذا بعد الموت فورًا: ﴿فَادْخُلِي فِي

عِبَادِي * وَادْخُلِي جَنَّتِي﴾، فمتى يدخل النارَ يا ترى؟ فثبت أنه باطلٌ قولهم أن كل نفس تدخل النار.

وقال الله تعالى أيضا ﴿وَقِيلَ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا مَاذَا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا خَيْرًا لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَلَدَارُ الآخِرَةِ خَيْرٌ وَلَنِعْمَ دَارُ الْمُتَّقِينَ * جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ كَذَلِكَ يَجْزِي اللَّهُ الْمُتَّقِينَ * الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلائِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلامٌ عَلَيْكُمُ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾(النحل:٣١-٣٣).. أي سيقال للمتقين: ما رأيكم فيما أنزله ربكم، أوَليس هو بكلام حكيم؟ فيقولون إن ما أنزله حق وخير.. أي ليس فيه أي حكم ضار بنا، بل كل ما أنزله الله تعالى نافع ومبارك ومساعد على الرقيّ. وما دام كلام الله خيرا في خير وحسنا في حسن، فلا بد أن يفوز الذين يعملون به بالحسنة في الدنيا والحسنة في الآخرة، ولهم جنات خالدة تتحقق لهم فيها كل أمانيهم، وهكذا يكون جزاء المتقين. سوف تقبض الملائكة نفوسهم وهم مؤمنون مخلصون، قائلين لهم سوف ينـــزل عليكم سلام عظيم، فادخلوا جنة الله.. أي سوف تنعمون بعد دخولها بالوصال الإلهي الذي هو رأس السلام.

فما دام المؤمن ينال الجنة في هذه الدنيا وفي الآخرة فلم يبق هناك احتمال لدخوله النار.

علمًا أن قوله تعالى ﴿الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلائِكَةُ طَيِّبِينَ﴾ يبين أن المراد من المتقين هنا قوم يموتون في حالة التقوى، وليس أنهم كانوا صالحين منذ الصغر حتى آخر لحظة من العمر. فمن أصبح صالحا كاملا قبل الموت هو المتقي، وإذا كان قد ارتكب بعض الذنوب فسوف يغفر له.

ثم إن حديث الشفاعة أيضًا يوضح أن المؤمن الكامل لا يدخل النار. قال النبي ﷺ: ثمانون* ألفًا مِن أمتي يدخلون الجنة بغير حساب.. أي أنهم لن يكابدوا عناء

* هكذا ورد في النص، غير أن ما وجدناه في الروايات هو: "يدْخُلُ الْجَنَّةَ مِنْ أُمَّتِي سَبْعُونَ أَلْفًا بِغَيْرِ حِسَابٍ (البخاري: كتاب الرقاق). (المترجم)

السؤال والجواب، بل سيدخلون الجنة رأسًا. والواضح أن الذين يدخلون الجنة بعد السؤال والحساب هم أكثر منهم عددًا بكثير.

فقد ثبت من هنا أن قوله تعالى ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ لا يعني أبدًا أن كل فرد من الجن والإنس سيدخل النار.

لقد قال كثير من المفسرين في تفسير هذه الآية أن النار ستتحول جنةً للمؤمنين فور دخولهم فيها، فيرون فيها بساتين وثمارا. (تفسير الطبري، قوله تعالى "وإن منكم إلا واردها..")

هذا التفسير مهزلة أوّلاً، إذ كيف يُدخل الله ﷻ أنبياءه وصلحاءه في النار أولاً، ثم يحوّلها جنة!

وثانيًا: هذا الطريق يسبب للمؤمنين معاناةً حتما إذ يفكّرون أن الله تعالى ساخط عليهم ولذلك أرسلهم إلى الجحيم، وإن كانوا سيعرفون بعد دخولها أنها ليست نارا، بل جنة ذات بساتين وأزهار وثمار، فلماذا يُلقَون في هذا العناء يا ترى؟

وثالثا: كيف يصحّ الظن أن محمدا وإبراهيم وموسى ونوحًا عليهم السلام أيضا سيدخلون النار بعض الوقت؟

الواقع أن كل هذه الآيات تبين بوضوح أن كثيرا من المؤمنين –والله أعلم ما إذا كانوا ملايين أم بلايين– سيدخلون الجنة رأسًا ولا تقترب منهم النار مطلقا.

إذن، فما هو المراد من قوله تعالى ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾؟

فاعلم أن "ال" في قوله تعالى ﴿مِنَ الجِنَّةِ والنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ عهديةٌ –علمًا أن "ال" قد تكون جنسيةً، أي تشمل جميع أفراد جنس معين، وقد تكون إشارةً للمعهود الذهني أو الذِّكري، أي إلى الجماعة المذكورة من قبل أو المتصوَّرة في الفكر، فمثلا يقال جاء الرجال، فإن "ال" هنا ليست جنسيةً بل هي عهدية، إذ ليس المراد أن رجال العالم كلهم جاءوا، بل المراد أن الذين ننتظر مجيئهم أو الذين مرّ ذكرهم قد جاءوا (مغني اللبيب).

وعليه، فقوله تعالى ﴿مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ هو أن كل الجن والإنس المذكورين من قبل سوف يدخلون النار. والمذكورون من قبل هنا ليسوا مؤمنين،

بل هم كافرون، وعليه فإنما المراد أن كبار الكفار وعامتهم كلهم سيدخلون الجحيم، لأنهم سواسية عند الله تعالى، ولن يفرّق الله تعالى بين فقيرهم وغنيهم عند العذاب.

وثمة مفهوم آخر لقوله تعالى ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ وهو أن طريق الجنة يمرّ من خلال جهنم. وليس المراد هنا جهنمُ سخطِ الله تعالى، بل مجرد المصائب والأذى. الواقع أن النار نوعان؛ أحدهما نارُ سخطِ الله، والأخرى نارٌ يوقدها الإنسان بيده لقتل نفسه الأمّارة، بتعبير آخر: نارٌ يعدّها الله للإنسان ونارٌ يُعِدّها الإنسان بيده. والنار التي يُعدّها الإنسان بيده لقتل نفسه الأمّارة فتبدو نارًا في الظاهر، ولكنها تكون جنةً في الواقع، ولا تدلّ على سخط الله عليه، بل يَصلاها بنفسه ابتغاء مرضاة الله تعالى. فمثلاً يستيقظ بالليل لعبادة الله غيرَ مبال براحته؛ فبينما يستمتع الآخرون في فراشهم بنوم عميق، فهو يعاني من أجل الله تعالى، وبينما يجمع الآخرون الأموال، فهو ينفق ماله في سبيل الله ابتغاء مرضاته تعالى متكبدًا المشقة والعناء، وبينما يتلذذ الآخرون بأشهى الأطعمة والمشروبات من سمك ودجاج وماء زلال مبرد بالثلج، فإن المؤمن يصوم ويحرم على نفسه الماء والطعام العادي طول النهار. أليس كل هذا جحيما؟

لقد صرّح الله تعالى من جهة أن المؤمن الكامل سيدخل الجنة رأسا، ومن جهة أخرى أعلن أنه لن ينال الجنة أحد ما لم يمرّ بأشواك الجحيم، فثبت من هنا أنه لا مناص لكل إنسان من المرور بالجحيم سواء تلك التي يُعدّها بيده لإصلاح نفسه بإلقاء نفسه في المعاناة والتضحيات وكفّ لسانه ونفسه عن الشهوات، أو تلك التي هي جهنمُ سخط الله تعالى. والحق أن أنبياء الله تعالى هم أكثر الناس مرورا بالجحيم الأول. فمن ذا الذي هو أكثر منهم إلقاءً لنفسه في أنواع المشاق والتضحيات لوجه الله تعالى؟ إن الأنبياء هم الذين يُعِدّون لأنفسهم أكبر جهنم.

وقد قال النبي ﷺ ما معناه: مَن كان أكثرَ حبًّا لله تعالى كان أكثرَ دخولاً في جحيم مصائب الدنيا●.

خلاصة الكلام أن قوله تعالى ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ إشارةٌ إلى الكفار كما يدل عليه السياق، أو هو إشارةٌ إلى النوع الآخر من الجحيم التي لا تشتعل بسبب سخط الله على الإنسان، بل هي جحيم المصائب والأذى التي يمر بها المؤمن عن طواعية ابتغاء مرضاة الله تعالى.

ومن الآيات التي تنفي دخول كل فرد من الجن والإنس النارَ قولُ الله تعالى ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ * وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غِلٍّ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الأَنْهَارُ وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ لَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ وَنُودُوا أَنْ تِلْكُمُ الْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ * وَنَادَى أَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابَ النَّارِ أَنْ قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدْتُمْ مَا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا قَالُوا نَعَمْ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ أَنْ لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ * الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُمْ بِالآخِرَةِ كَافِرُونَ * وَبَيْنَهُمَا حِجَابٌ وَعَلَى الأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلًّا بِسِيمَاهُمْ وَنَادَوْا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ سَلامٌ عَلَيْكُمْ لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ * وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَارُهُمْ تِلْقَاءَ أَصْحَابِ النَّارِ قَالُوا رَبَّنَا لا تَجْعَلْنَا مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ * وَنَادَى أَصْحَابُ الأَعْرَافِ رِجَالًا يَعْرِفُونَهُمْ بِسِيمَاهُمْ قَالُوا مَا أَغْنَى عَنْكُمْ جَمْعُكُمْ وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ * أَهَؤُلاءِ الَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لا يَنَالُهُمُ اللَّهُ بِرَحْمَةٍ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ لا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ﴾(الأعراف:٤٣-٥٠).

● لعل حضرته ﷺ يشير إلى الحديث الوارد في مسند أحمد: عَنْ مُصْعَبِ بْنِ سَعْدٍ قَالَ قَالَ سَعْدٌ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أيُّ النَّاسِ أَشَدُّ بَلاءً؟ قَالَ الأَنْبِيَاءُ ثُمَّ الأَمْثَلُ فَالأَمْثَلُ،حَتَّى يُبْتَلَى الْعَبْدُ عَلَى قَدْرِ دِينِهِ ذَاكَ. (المترجم)

لقد بين الله تعالى هنا أن الذين آمنوا وعملوا الصالحات لن نشق عليهم ولن نضع عليهم عبئًا لا طاقة لهم بحمله. إنهم أصحاب الجنة وسوف يعيشون فيها للأبد.

انظرْ إلى روعة هذا المعنى! فَلِكَي لا يظن أحد أن دخول الجنة يحتّم على المرء ألا يصاب بزلةٍ ولا يقترف أي خطأ بدءًا من الميلاد إلى الممات، فقد صرح الله هنا بأن الذي يبذل جهده لإصلاح نفسه ويعمل الصالحات فسوف نغفر له ذنوبه وندخله الجنة رأسًا، حتى ولو مات قبل بلوغ غايته.

ثم يقول الله تعالى هنا سنخرج من قلوبهم كل حقد، وستجري من تحتهم الأنهار وسيحمدون الله تعالى على ما هداهم إلى سبيل الجنة، إذ لولا ذلك لما اهتدوا. كان هذا قضاء الله الذي ظهر من خلال رسل الله المبعوثين إليهم، ولولا بعثة الرسل إليهم لما نالوا الهدى. وسيقال لهم لقد ورثتم الجنة لقيامكم بالصالحات في الدنيا.

ثم يخبر الله تعالى أن أصحاب الجنة سيقولون لأصحاب النار: لقد وجدنا ما وعدنا ربنا حقًّا فهل أنجز لكم ربكم ما وعدكم به؟ فيقولون: نعم، لقد حقق لنا ما وعدنا به. فيقول المنادي أن لعنة الله على الظالمين.

فلو كان أهل الجنة قد دخلوها بعد أن دخلوا في الجحيم لما وجّهوا إلى أهل النار هذا السؤال؟ فقد رأوا هنالك أهل الجحيم، فلماذا يسألونهم هل تحقق لكم ما وعدكم الله به أم لا؟ هذا دليل بيّن أن أهل الجنة لم يدخلوا النار قبل دخولهم الجنة. هل كانوا عميانا أم كانت عيونهم معصوبة إذ ينادون أهل النار ويسألونهم هذا السؤال مع أنهم قد مرّوا من خلالها كما زعم كثير من المفسرين؟

ثم يقول الله تعالى ﴿وَبَيْنَهُما حِجَابٌ﴾.. أي أن الله تعالى سيضرب بين المؤمنين والكافرين حجابًا لكيلا يخاف المؤمنون برؤية أهل النار. انظرْ كم يراعي الله تعالى مشاعر المؤمن، حيث يخبر هنا أنه سيحفظ المؤمنين مِن رؤية عذاب النار من بعيد أيضا، ولكن المسلمين اليوم يظنون أن كل إنسان يدخل الجحيم.

ثم يخبر الله تعالى أن الرجال على الأعراف سيعرفون الجميع بملامحهم، فينادون أهل الجنة الذين لم يدخلوها بعد بل يرجون دخولها؛ أنْ سلام الله عليكم. لقد

اتضح من هنا أن هذه الجماعة من المؤمنين أيضًا ستكون واقفة خارج النار، فيقول لهم أصحاب الأعراف أنْ سلام الله عليكم.

إن المفسرين قد أخطأوا في تفسير هذه الجملة أيضًا، إذ قالوا بأن أصحاب الأعراف قوم لا يكون الحكم قد صدر بعدُ فيما إذا كانوا يدخلون الجنة أم لا. مع أن الله تعالى يخبر هنا أن أصحاب الأعراف هؤلاء ينادون أهل الجنة وأهل النار ويسألونهم عن مصيرهم، ومثل هذا المقام لا يتبوأه إلا كبار المؤمنين. الحق أن أصحاب الأعراف ليسوا مؤمنين عاديين، بل هم طائفة الأنبياء والصلحاء الكاملين. هم الذين سيقولون للمؤمنين العاديين لا تخافوا، لأن سلام الله سيستركم، ذلك أنهم لا يكونون قد دخلوا الجنة بعد، بل يرجون دخولها، فيكونون خائفين، فيُطَمْئِنُهم أصحابُ الأعراف أنْ سلام عليكم، فلا تخافوا ولا تحزنوا.

ثم يخبر الله تعالى أن أبصار هؤلاء المؤمنين الكبار ستُصرف إلى أهل النار، فيدْعون الله تعالى: ربنا لا تجعلنا مع القوم الظالمين.

الغريب أن المفسرين يقولون أن أصحاب الأعراف هم أدنى المؤمنين درجةً (تفسير الخازن)، ولو سلّمنا برأيهم جدلاً، أفليس غريبًا أن الله تعالى يخبرنا أن أدنى المؤمنين درجةً أيضا سيدخلون الجنة وينجون من النار، إذ يقولون ربنا لا تجعلنا مع القوم الظالمين؟ بينما يزعم المفسرون أن المؤمنين العاديين لن يدخلوا الجنة.

ثم يخبر الله تعالى أن أصحاب الأعراف يقولون للكافرين لم تنفعكم أحزابكم. كنتم تتمنون للمؤمنين شرًّا، ولكنهم سيدخلون اليوم الجنة. ثم يقولون للمؤمنين اذهبوا وادخلوا الجنة.

لقد تبين من هنا أمران، أوّلهما أن المؤمنين لن يدخلوا الجحيم؛ إذ قيل هنا أن المؤمنين يكونون واقفين بعيدا عن النار حين يأمرهم أصحاب الأعراف بدخول الجنة. والأمر الثاني هو أن أصحاب الأعراف ليسوا ضعاف المؤمنين، إذ يخبر الله تعالى هنا أنهم يقولون للمؤمنين اذهبوا وادخلوا الجنة؛ وليس هناك عاقل يتصور أن المؤمنين الضعفاء سيأذنون لكبار المؤمنين بدخول الجنة.

لقد تبين من هذه الآيات أن قدر الله وقضاءه هو أن يدخل كل إنسان الجنة، أما الذي يدخل النار فمثلُه كمسافر يضلّ عن طريقه، ولكنه أيضا سيدخل الجنة في نهاية المطاف. ولو أن أهل النار هؤلاء أيقنوا بقضاء الله هذا وأدركوا أن الله تعالى إنما خلقهم ليكونوا عباده المؤمنين المخلصين لبذلوا جهدهم لفعل الخيرات وإصلاح أنفسهم. فالحق أن المرء إذا لم يوقن بقضاء الله هذا تعثّرَ ووقَع في شتى المساوئ؛ وهذا هو حال النصارى فيما يتعلق بإيمانهم بقضاء الله تعالى، إذ يؤمنون أن الإنسان يُخلق آثما، ولا يمكن أن يتطهر من إثمه ما لم يؤمن بالفداء والكفّارة. وكذلك الهندوس لا يوقنون بقضاء الله هذا، وإنما يؤمنون بالتناسخ، إذ يرون أن الإنسان قد خلقه الله للنار لا للجنة، وأنه يجزيه على حسناته ولكنه يستبقي بعض سيئاته من دون عقاب ليرجعه بسببها إلى الدنيا ثانيةً. وإن القليلين جدًا هم الذين يحالفهم الحظ فيستحقون الجنة بفضل حسناتهم، لكن الله تعالى يرجعهم إلى الدنيا ثانية ببعض ذنوبهم التي استبقاها و لم يعاقبهم عليها، وهكذا لا يبرح الإنسان في دورة الولادات المتكررة التي لا نهاية لها أبدًا (ستيارتهـ بركاش ص٣١٦-٣١٧). وهذا يماثل معاملةَ المرابين الهندوس مع المسلمين؛ حيث إن المسلم إذا استدان مِن بعضهم ثم جاء لتسديد دينه، فلا يستلم منه المرابي المبلغ كله، بل يُبقي شيئًا منه بدون دفع، ولكنه يقول للمسلم: قد سددتَ ما عليك، فيرجع المسلم مطمئنا، بينما يتضاعف ما بقي من الدَّيْن مع الربا، وبعد فترة يذهب المرابي إلى المسلم ويقول له: لقد أخطأتُ حين قلت لك قد دفعتَ كل ما عليك من الدين، الواقع أنه قد بقي بعض دينك بدون سداد، وقد صار الآن مع الربا كذا وكذا، وهكذا لا تنتهي سلسلة الربا المتراكمة على المسلم. فالهندوس يرون أيضا أن الله تعالى يعامل الناس كما يعاملون المسلمين، حيث لا يُنهي الحساب مع الإنسان، فلا يغفر له ذنوبه كلها بل يستبقي بعضها كي تتضاعف، فيرجعه الله إلى الدنيا في ولادة جديدة عقابًا عليها.

الواقع أنها كلها أوهام واهية وأفكار باطلة. لقد خلقَنا الله تعالى للجنة، ثم إنه لا يزال يساعدنا على دخولها. ومَن أدرك قضاء الله هذا فلا بد أن يحنّ شوقًا للجنة، ويبذل لها أقصى ما في وسعه، ويجاهدَ لإصلاح نفسه ليكون أهلاً لدخولها؛ فإذا

كان قد ارتكب المعاصي في حياته السابقة فلن ييأس ولن يقنط أيضا، بل لا يبرح يأمل أملاً قويًا أنْ لا زال عنده فرصة لأن يدخل الجنة بفعل الخيرات.

إذن، فالإيمان واليقين بقضاء الله تعالى لا يُضعف همة الإنسان، بل يرفعها. فلو أيقن المرء بقضاء الله المذكور في القرآن فلا بد أن يسعى كل السعي لدخول الجنة. أما الذي لا إيمان له بهذا القضاء، فيصاب بالقنوط، فيلقي بنفسه في بحر الآثام قائلا ما دامت عاقبتي وخيمة، فلماذا لا أستمتع الآن بملذات الدنيا ومتعها؟

المفهوم الحادي عشر: ومن معاني الدين التدبيرُ. والحق أن منكر التدبير أيضا يقع في المعاصي ويُحرم الحسنات. إن الذي ينكر التدبير والسعي للإصلاح ويظن أنه إذا سقط مرةً فقد سقط للأبد، فنجاته محال. إن الله تعالى ينبّهنا هنا ويقول: لا تظنوا أننا لم نزوِّدكم بالقوى والكفاءات للتدبير ومكافحة السيئات. لقد زودناكم بهذه القوى كلها، فمن كان منكم صادق النية للإصلاح وسخَّر هذه القوى فلا بد أن يجتنبَ السيئات، أما الذي ينكر التدبير ويظن أنه إذا ارتكب الإثم فنجاته محال، فسيظل عرضة لسيئات شتى. فما دام قد أنكر التدبير أصلاً فأنى له أن يسعى للتخلص من المعاصي؟

كان لي صديق في صغري، فعلمت أنه قد ارتكب بعض المعاصي، فسألته: أصحيح أنك ارتكبتها؟ قال: أجل، وإني أعلم أيضًا أنني قد ارتكبت من المعاصي ما لا نجاة لي بعده من العقاب، بل سأدخل النار حتمًا، ولذلك أقترفها الآن بلا هوادة، لكي أستمتع بهذه الحياة على الأقل. فقلت له: إن الله تعالى قد زود الإنسان بقدرة يستطيع بها التغلب على السيئات لو أراد. ففهم الأمر وأخذ يبذل جهده لإصلاح نفسه حتى تغَلَّب على السيئات وأصلح نفسه.

يقول الله تعالى ﴿كُلًّا نُمِدُّ هَؤُلاءِ وَهَؤُلاءِ﴾(الإسراء:٢١).. أي نساعد المؤمن والكافر أيضا. وبالفعل نشاهد أن الله تعالى يرزق المؤمن والكافر، ويثمر جهود الأول وجهود الآخر أيضا. فكأن الله تعالى يقول لنا ما دمنا نساعد الكافر في جلب المنافع المادية مع أنه ليس بيننا وبينه صلة، فلمَ لا نساعد المؤمن الذي يسعى جاهدا

لوصالنا؟ وما دمنا نساعد عدونا فلماذا لا نساعد صديقنا؟ فالحق أن باب التدبير مفتوح على مصراعيه.

ويقول الله تعالى ﴿فَذَكِّرْ إِنْ نَفَعَتِ الذِّكْرَى﴾ (الأعلى:١٠).. أي عليك أن تواصل التذكير والنصح، لأن التذكير ينفع دائما، ولن يذهب هذا التدبير سدى، وكل من يحاول إصلاحه يفلح دومًا. علمًا أنّ حرف (إنْ) قد جاء هنا للتأكيد والقطعية.. أي أن النصح ناجع دائما.

وكذلك قال الله تعالى ﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَنْ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَى مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ * أُولَئِكَ جَزَاؤُهُمْ مَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَجَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ﴾(آل عمران:١٣٦-١٣٧).. أي أن الذين إذا ارتكبوا إثما أو وقعوا في خطأ، ثم ذكروا الله تعالى وحاولوا الإصلاح، واستغفروا ربهم -وَمَنْ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلا اللَّهُ- ثم لم يصرّوا على خطئهم متعمدين، وعلموا أن الله تعالى قد جعل لهم طريقا للنجاة، وأن بوسعهم الإقلاع عن السيئات إذا أرادوا، فجزاؤهم أنهم سيحظون بقرب الله تعالى بسبب ما بذلوا من جهود، وسوف يغفر لهم الله ويعطيهم بساتين تجري من تحتها الأنهار، وهذا الجزاء لا يكون مؤقتا، بل سوف يقيمون في تلك البساتين للأبد. فما أروعَ جزاءَ العاملين! أي أن الذي يبذل جهده في هذا السبيل فلن يرى الفشل.

انظر كيف سهّل الله الطريق إلى الجنة. فمَن سعى واجتهد تخلّص من المعاصي والسيئات، بل أقول حتى لو لم يتخلص منه وقُتل في حربه ضد الشيطان فثوابه مضمون؛ فهل من المعقول أن يغضب أهل البلد على الجندي الذي يُقتل خلال الحرب قبل الانتصار؟ هل يغضبون عليه لأنه قُتل قبل الفتح؟ كلا، بل إن ما نراه هو أن الذين يُقتلون في الحرب يُمنحون أوسمة عظيمة بعد الحرب، فالبريطان يمنحون جنودهم ما يسمى (Victoria Cross)، والألمان يمنحون ما يسمى (Airon Cross). فالحق أن الذي يموت مجاهدًا بصدق، فلن يدخل الجحيم وإن لم ينجح في جهوده كل النجاح. إنه جندي من جنود الله، وقد قُتل أثناء القتال. إنه لم

يمت باختياره، وإنه لم يتمنَّ الموت، وإنما قُتل في الحرب بحسب القانون الإلهي، فموته موتُ مؤمن. أيستحقّ الجندي الذي يُقتل في الحرب الثناءَ أم العقاب؟ فما دام يستحق الثناء لا العقاب، فكيف يلقى في النار مَن مات خلال سعيه لوصال الله تعالى؟

ورد في الحديث أن رجلا قتل ٩٩ شخصا، فأراد أن يتوب، فذهب إلى عالِم وسأله: هل لتوبتي مِن سبيل؟ قال: كلا، لا سبيل لتوبتك أبدا. قال: إذا كانت توبتي لن تقبل فَلْأقتلْك أيضًا، فأي ضير لو قتلت شخصًا آخر؟ فقتَله. ثم ذهب إلى علماء آخرين، وظل يقتلهم واحدا بعد الآخر، حتى أشار عليه البعض بالذهاب إلى عالم يقول إن باب التوبة لا يُغلق في وجه أحد أبدًا. فخرج للقائه، ولكنه مات في الطريق. فاختصمت الملائكة عند موته -علمًا أن كل هذا الكلام استعارة ومجاز- فقالت ملائكة النار: إنه من أهل النار، لأنه لم يتُبْ بعد، وقالت ملائكة الجنة: إنه من أهل الجنة، لأنه كان يريد التوبة، ولكنه مات في الطريق. فرفعوا الأمر إلى الله تعالى ليحكم بينهم، فأمرهم أن يقيسوا الأرض، فإذا كان أقرب إلى الأرض التي خرج منها فهو من أهل النار، وإذا كان أقرب إلى الأرض التي قصدها من أجل التوبة فهو من أهل الجنة. ثم أمر الله الأرض أن تنكمش وتتقرب من الجهة التي كان متوجها إليها، ثم قاست الملائكة الأرض، فأخبروا الله تعالى أنه أقربُ إلى الأرض التي كان ذاهبًا إليها، فأمرهم الله تعالى أن يدخلوه الجنة. (مسلم: كتاب التوبة، باب قبول توبة القاتل)

لقد بين الله تعالى في هذه القصة المجازية أن كل من مات جاهدًا للنجاة فهو من أهل الجنة، وإن لم ينجح في محاولته للتخلّص من المعاصي، شريطة أن يكون صادقًا في نيته وعاطفته وجهده. أما الذي ينكر التدبير والجهد فأخبر الله عنه في الآية قيد التفسير أنه سيقع في المعاصي دائمًا لظنه الخاطئ أنه غير قادر على محاربة السيئات. إن المؤمن يعلم أن الله تعالى قد فتح أمامه سبيل التدبير على مصراعيه، وأن بوسعه التغلب على المعاصي ببذل الجهد والتدبير. إذا كان التدبير غير مُجدٍ في سبيل التخلص من السيئات فلماذا أمرنا الله بالحوقلة والاستغفار والتعوّذ؟ إنما علّمنا الله

تعالى بذلك أن باب التدبير مفتوح دائما، وكل من حاول وسعى نجح في إصلاح نفسه وتغلّبه على الإثم.

المفهوم الثاني عشر: ومن معاني الدين الشأنُ، ومن مفاهيم الشأن "الخَطْب العظيم" (الأقرب)؛ "والحالُ والأمرُ الذي يتّفق ويصلُح، ولا يقال إلا فيما يعظُم من الأحوال والأمور" (المفردات). فالشأن لا يُطلق على ما يفشل فيه المرء، وإنما يطلق على الأمر الذي تتيسر أسباب نجاحه ويتم فعلاً، ويكون على عظام الأمور. إذن، فالشأن يعني: الحالة العظيمة أو المهمة العظيمة التي تنجح حتما. وقد ورد لفظ الشأن في القرآن الكريم بهذا المعنى نفسه في قول الله تعالى ﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾(الرحمن:٣٠).. أي أن الله تعالى يضع خطة معينة في كل عصر، ويوفر الأسباب الملائمة لتحقيقها، ثم ينجزها دومًا. والمراد من ﴿كُلَّ يومٍ﴾ عصرُ الأنبياء. علمًا أن هذه الآية من سورة الرحمن قد جاءت في معرض الحديث عن بعثة الرسول ﷺ؛ حيث يقارن الله تعالى بين عصره ﷺ وعصور الأنبياء السابقين، ويخبر أنه قد قسم الزمن بحسب عصور الأنبياء، وأنه قد وضع خطة لعصر كل نبي، وقد نجحت خطته دائمًا كما أراد، فالذين ينكرون الخطة الإلهية أو يُعرضون عنها يحلّ بهم عقاب الله. علمًا أن هذه الخطة تكون في البداية موجَّهة إلى المنكرين، أما في الفترة المتوسطة والأخيرة، فإلى المؤمنين بها في الظاهر والمعرضين عنها في الواقع. فقوله تعالى ﴿أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالدِّينِ * فَذَلِكَ الَّذِي يَدُعُّ اليَتِيمَ﴾.. يعني أَخْبِرْني عن الذي ينكر أن الله تعالى يضع خطة معينة في عصر كل نبي، وأنه قد وضع خطة في عصر محمد أيضا. ومن أنكر هذه الخطة المحمدية فستجده يقع في أنواع المعاصي والآثام.

واعلم أن الله تعالى يتجلى بقدرته في كل عصر، ولكنه يتجلى بها في عصر الأنبياء خاصة، حيث يعمل على تنفيذ خطة معينة، وخطته هذه تنجح حتمًا مهما حاول العدو إعاقتها وإفشالها. لقد وضع خطة في عصر موسى عليه السلام؛ ومع أنه قد عاداه فرعون –ذلك الملك الجبّار ذو القوة والنفوذ– إلا أنه لم ينجح في إفشال

الخطة الإلهية، كما لم تنجح أمة موسى أيضًا حين أعرضت عن تلك الخطة قائلة له: ﴿فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلا إِنَّا هَهُنَا قَاعِدُونَ﴾(المائدة:٢٥).. أي لن نعمل بخطتك، بل سوف نحقق الرقي بأساليبنا، فقال الله ﷻ لموسى: حسنًا، الآن سيظلون تائهين في البراري والفلوات أربعين سنة. لقد أحرزت أُمته نصرا بعد نصر بعد خروجها من مصر، فلما عصتْه تركَها الله تعالى تائهة في الفلوات، ولم يحالفها النجاح إلا بعد أن تابت على يد يوشع عليه السلام.

وهذا ما فعل الله تعالى في عصر عيسى عليه السلام الذي أتى بخطة إلهية جديدة، فبذل أعداؤه كل ما في وسعهم لإفشالها، ولكنهم فشلوا، ونجحت خطة الله، ولم يقُمْ حُكم اليهود إلا بعد أن تبعوا الطريق الذي دعاهم إليه عيسى عليه السلام، ما عدا نجاحهم في الاستيلاء على فلسطين أخيرًا، ولكنه نجاح عابر مؤقت، وقد تنبأ به القرآن الكريم نفسه. ولمعرفة المزيد عن نجاحهم العابر هذا، راجِعْ تفسيرَنا لسورة الإسراء.

ليس بوسعكم تقدير المعاناة الطويلة التي تعرضت لها أمة عيسى عليه السلام. لقد عاشوا ثلاثة قرون عيشة ذل وهوان، وكانوا خلال هذه الفترة الطويلة يختبئون تحت الأرض في مغارات رطبة الأرضية على عمق ثمانين قدمًا لسبع سنوات متتالية في بعض الأحيان. لقد زرت هذه المغارات في إيطاليا وتسمى (Catacombs).. أي سراديب الموتى، وهي مغارات مخيفة لا تستطيعون تصورها. وظني أنه لو تعرضت جماعتنا لتلك الشدائد لارتد كثير منهم عن الأحمدية، ولكن جماعة مخلصة من المسيحيين قد عاشوا مختبئين في تلك الحفر والمغارات سبع سنوات متتالية في بعض الأحيان حفاظًا على إيمانهم، وإن كان ضعاف الإيمان منهم يرتدون خوفًا. كانوا يخرجون منها سرًّا، وكان المتعاطفون معهم يمدّونهم بالطعام من المدينة. كانت مغارات مظلمة، فكانوا يضيئونها بإشعال الشموع ليل نهار. والحق أنه بعد رؤية هذا المكان لا يمكن لأحد أن يعترض ويقول لماذا آتى الله تعالى المسيحيين الحُكم والمُلك لهذا الزمن الطويل؟! الواقع أن هذا المُلك ثمرة تضحيات آبائهم التي لم ينسها الله تعالى. عندما زرت هذه السراديب ذات الطوابق العديدة لم أستطع أن

أنزل فيها أكثر من طابقين. كنت أنوي أن أنزل أكثر تحت الأرض فيها، ولكن رفقائي أصرّوا عليَّ أن لا أنـــزل أكثر، لأن هذا سيزيد مرضي. لم ننـــزل فيها طابقين حتى انهارت قوانا ولم تبق في أجسادنا قوة. هذه المغارات طولها سبعون ميلا، لكن المسيحيين كانوا يعيشون هنالك ليل نهار، فهنالك كانوا يلدون الأولاد، ويبنون الكنائس، وتجد هنالك في كل مكان شواهد مكتوب على بعضها العبارة التالية: كان أهلي وأولادي وإخوتي وأخواتي جالسين هناك حين داهمتهم الشرطة الرومانية نتيجةَ وشايةٍ من أحد، فقتلوهم في مكانهم، ولكني نجوت بفضل الله، وها إني أنصب هذا الشاهد هنا لكي يقرأه الناس ويدعوا لهؤلاء. ومكتوب على بعضها: هنا استُشهد قسيسنا، وهو يقوم بالوعظ، على يد الشرطة الرومانية، وها إني أنصب هذا الشاهد تذكارا له.

انظر إلى استقامتهم المذهلة! وانظر إلى تضحياتهم الرائعة! فلا يصح بعد ذلك الاعتراض على ما آتاهم الله من المُلك كل هذه المدة الطويلة.

باختصار، فإن الله تعالى يضع خطة جديدة في كل عصر، كما فعل في زمن كرشنا، ورام شندر، وزرادشت، والرسول عليهم السلام، وكلّ مَن لا يعمل بحسب الخطّة الإلهية لا يمكن أن يترقّى في الخير، إنما يزداد إثما، وكلُّ مَن يقوم لمحاربتها يكون مآله الخيبة والخسران. كان العرب أوّل معارضي النبي ﷺ، فمن آمن به منهم نجح وتقدَّم. لم يكن لأبي بكر فضلٌ على أبي جهل في بادئ الرأي، بل كان الأخير أكثر ذكاء من الأول عند قومه، مع ذلك قد نال أبو بكر تلك المكانة المرموقة ببركة إيمانه بالرسول ﷺ، بينما سقط أبو جهل في الحضيض نتيجة كفره بالنبي ﷺ.

ولا يصح هنا قول قائل: إن الأمة الفلانية أيضًا ترتكب المعاصي، فلماذا لا تُعاقَب؟ وما دام قد حالفها النجاح مع اقترافها المعاصي، فكيف لا ننجح بدون العمل بأحكام الإسلام من صلاة وصوم وحجاب وغيرها؟

ذلك أن الخطط الإلهية تكون ذات شِقّين: شِقٌّ يتعلق بعقاب الكافرين قبل غلبة النبي، وشِقٌّ آخر يتعلق بعقاب أتباعه بعد غلبتهم. ذلك أن أتباعه إذا أعرضوا عن

الدين عمليًا، عاقبَهم الله تعالى أكثرَ غاضًّا الطرف عن أعدائهم قائلا لهؤلاء المؤمنين في الظاهر: إن الأمم الأخرى لا تدّعي العمل بخطّتنا كما تدّعون، وإنكم أنتم المسؤولون عن إنجازها لا هم، لقد سبق أن عاقبناهم في عصر النبيّ، فلا حاجة لعقابهم على سوء أعمالهم بقدر الحاجة إلى عقابكم على سوء أعمالكم.

ففي هذا العصر أيضًا إنما يحرز المسلمون الرقي بالعمل بأحكام الإسلام فقط، وإنهم لن يزدهروا أبدًا وهم معرضون عن دينهم. فهم مسؤولون عن تحقيق الخطة الإلهية في هذا العصر، فإذا هم أعرضوا عنها فكيف تتحقق مشيئته هذه؟ لو كان بوسع المسلمين الازدهار مع إعراضهم عن الدين، فلماذا وضع الله هذه الخطة إذن؟ فلا جرم أنّ تقدّم المسلمين مستحيل في هذا العصر من دون العمل بالإسلام. نعم، إنهم لن يعودوا مسؤولين عن تنفيذ هذه الخطة الإلهية بعد أن تصبح الأحمدية غالبة في العالم، وازدهارهم المادي ممكن عندها، أما قبل غلبة الأحمدية فإنهم مسؤولون عن العمل بهذه الخطة مثل المسلمين الأحمديين، ولن يحالفهم النجاح بدون ذلك. وكما قلت إن الأمم الأخرى يمكن أن تزدهر ماديا من غير العمل بالإسلام لأنها ليست مسؤولة عن إنجاح هذه الخطة الربانية، لقد أعرضَتْ عن الله تعالى سلفًا، وفسادهم الزائد لن يضر بالخطة الربانية في هذا العصر؛ أعني بالإسلام، أما لو ازدهر المسلمون ماديًا معرضين عن الإسلام فسوف يُهملون الإسلام كليةً، ولن يبقى في الدنيا مَن يحمل لواء الهدي الإلهي، وستفشل الخطة المحمدية، ولذلك لن يكتب الله لهم الرقي المادي بغير العمل بالإسلام ليعود بهم إليه، ولتَصْرِفهم المحن والبلايا إلى الله تعالى ثانية، لتظلّ الخطة الإلهية التي بدأت بالإسلام قائمة مزدهرة. إذا كان المسيحيون لا يعملون بدينهم فإن بإمكانهم أن يحرزوا الرقي المادي مع فسادهم، وإذا كان الهندوس لا يعملون بدينهم فيمكنهم التقدم مع فسادهم، لأن الأديان الأخرى قد أصبحت فاسدة محرفة، ولم تتعطل مسيرة الخطة الإلهية بفساد تلك الديانات، أما لو ترك الله تعالى المسلمين يزدهرون ماديًا مع فسادهم، فإن مسيرة خطته ستتعطل، لأن المسلمين أدوات هذه المسيرة، فلو تركهم يتهاونون لتعطلت مسيرته وفسدت.

خلاصة القول، إن الله تعالى يقول هنا: أَخْبِرْني عن الذي ينكر شأن الله، أي ينكر خطته التي وضعها في هذا العصر.. أي خطة النبوة المحمدية، إذ بدأها الله في هذا العصر، فمَن رفض النبوة المحمدية لن ينجح أبدا، إنما يحرز الرقي والنجاح في هذا العصر من عمل بالنبوة المحمدية، وصار أداةً فعّالة في هذه المسيرة الروحانية.

لقد قلت من قبل إن الحديث هنا عن الشق الأول من الخطة الربانية أي عن فترة ما قبل غلبة الإسلام، أما بعد غلبته فيبدأ الشق الثاني من هذه الخطّة عمله.

فَذَٰلِكَ ٱلَّذِى يَدُعُّ ٱلْيَتِيمَ ﴿٢﴾

شرح الكلمات:

يدُعّ: دَعَّه دَعًّا: دفَعه دفعًا عنيفا. وفي "الأساس": دَعَّ اليتيمَ: دفَعه بجفوة. (الأقرب)

التفسير: لقد بيّن الله تعالى هنا أن الذي يكذّب بالدين فهو الذي يدُعّ اليتيم.. أي ينهره ويزجره.

اعلمْ أن هناك محذوفًا قبل الفاء هنا، إذ لا يمكن أن يكون قوله تعالى ﴿فَذَلِكَ الَّذِي يَدُعُّ الْيَتِيمَ﴾ جوابًا لقوله تعالى ﴿أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالدِّينِ﴾. وقد قلت من قبل إن المفسرين قد أتوا بتأويلات شتّى، فيرى الزمخشري صاحبُ الكشّاف –الذي ليس له مكانة عالية في التفسير، غير أنه يُعتبر إمامًا في اللغة والنحو– أن المحذوف هنا هو: "إنْ لم تعلم"، والمعنى: أيها المخاطَب إن كنت لا تعلم من الذي يكذّب بالدين فأخبرك أنه موصوم بكذا وكذا من العيوب.

وقد أثار بعض المفسرين اعتراضًا على هذه الآية وقالوا إن هذا المحذوف (إن لم تعلم) يدل على شك، والله عليم خبير ولا يمكن أن يشك فيما إذا كان المخاطَب يعلم أم لا يعلم.

وقد أجيبَ عليه بإجابات شتى، لكن الجواب عندي كالآتي: أولاً: الخطاب هنا ليس موجَّهًا إلى شخص معين، بل إلى كل الناس أو إلى كلّ مَن يقرأ القرآن الكريم، والواضح أنه إذا كان المخاطَبون أكثر من واحد، فبعضهم يعلم الأمر المذكور هنا وبعضهم لا يعلمه، وبالتالي فليس هنا أية دلالة على شك مِن قِبل المتكلم وهو الله ﷻ، وإنما قيل ذلك نظرًا إلى حالات مختلفة للمخاطَبين، فكأنه قيل: أيها المخاطب، إن كنت لا تعلم الجواب فهذا هو الجواب.

والجواب الثاني هو ما بيّنتُه من قبل بأن الاستفهام في قوله تعالى ﴿أَرَأَيْتَ﴾ لا يفيد النفي، بل يفيد التأكيد، ومعناه: أَخْبِرْني، وما دام ليس هنالك أي سؤال من الله تعالى فلا مجال لأي شك منه تعالى.

وليكنْ معلومًا هنا أن تاء المخاطب للمفرد في ﴿أَرَأَيْتَ﴾ لا تشير إلى شخص واحد، بل إلى كثيرين؛ ومثاله ما قال الله تعالى لرسوله ﷺ بشأن والديه ﴿فَلا تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ وَلا تَنْهَرْهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا﴾(الإسراء:٢٤). والواضح أن الأخذ بالمعنى الحرفي للآية واعتبار الخطاب هنا موجهًا للرسول ﷺ باطل، إذ وُلد النبي ﷺ يتيمًا، بل قد توفيت أمه أيضًا في صغره، وقد ذكر القرآن الكريم كونه يتيمًا في سورة الضحى؛ فثبت أن الخطاب في قوله تعالى ﴿فَلا تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ﴾ ليس موجهًا إلى الرسول ﷺ، وبالتالي فهو موجه للمسلمين جميعا. وقد جيء بضمير الخطاب المفرد لتوجيه الخطاب إلى كل فرد من المسلمين تأكيدًا للأمر، والمراد: يا زيد، ويا بكر، ويا عمرو، اسمعْ جيدًا: إذا بلغ أبواك عندك الكِبَرَ وأصبحا عصبيّين، فعليك بالصبر على سرعة غضبهما، ولا تقلْ لهما أُفٍّ ولا تنهرهما، أي لا تقل: كفى يا أبي أو يا أمي.

إذن، فثبت أن لفظ المفرد يستخدم للجمع أحيانا، ويراد به كل فرد من البشر أو من الأمة، وعليه فالخطاب في قوله تعالى ﴿أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالدِّينِ﴾ موجه إلى كل فرد من المسلمين، أو إلى كل فرد من البشر؛ فقيل: يا مَن تعلم هذا أو لا تعلم، تذكَّرْ أن الذي يكذّب بالدين يقع في شتى المساوئ حتمًا.

والنحوي الشهير "الحَوْفي" أيضا يقول إن همزة الاستفهام في قوله تعالى ﴿أَرَأَيْتَ﴾ ليست للنفي، بل للتأكيد (البحر المحيط)، والمعنى: أنك تعلم يقينًا مَن يكذِّب بالدين، وها نحن نخبرك عن مصيره بأنه سيقع في أنواع المعاصي حتمًا. وعليه، فستصبح هذه الآية بمنـــزلة نبوءة، حيث أخبر الله تعالى أن معارضي الإسلام سيقترفون أنواع السيئات؛ وهذا ما حدث بالضبط.

إن إساءة معاملة اليتيم وزجْره لِمن أسوأ الأعمال بحسب القرآن الكريم، وقد نبّه الله تعالى إلى ذلك مرارًا كقوله تعالى ﴿فَأَمَّا اليَتيمَ فَلا تَقْهَرْ﴾ (الضحى: ١٠)، وكل الكلمات الواردة في القرآن الكريم بشأن اليتيم تنهى عن قهره وقهره وإذلاله. وقد نشأ عليه سؤال هام وهو: هل كان هذا التعليم ردَّةَ فعلٍ من محمد ﷺ الذي كان يتيمًا؟ (تفسير القرآن لِـــ"ويري"). لقد أثار هذا السؤال قومٌ يرون أن القرآن الكريم هو صوت فطرة محمد، وليس صوت الله تعالى. وهؤلاء فئتان: فئة من المسلمين وفئة من غير المسلمين، أما المسلمون منهم فيرون أن الرسول ﷺ كان نقيّ الفطرة طيّب القلب، فلما رأى المجتمع مصابًا بهذه المفاسد رفع صوته احتجاجا عليها، وهذا الصوت الدال على نقاء فطرته وطيب نفسه كان بمنـــزلة صوت الله تعالى. أما غير المسلمين من هؤلاء المعترضين فقالوا: كان محمد (ﷺ) شديد الذكاء، فلما رأى هذه المساوئ منتشرة في المجتمع تولدت عنده ردّةُ فعل، فأخذ يناجي نفسه ضد هذه المفاسد، ومناجاته هذه هي القرآن في الواقع، ولكنه لقلة علمه – والعياذ بالله– ظنّها صوتًا من الله ووحيًا منه ﷻ، مع أنه لم يوحَ إليه شيء. كل ما في الأمر أنه كان مرهف الحسّ حسن الطبع نقيّ الفطرة، فنشأت في نفسه هذه الأفكار الطيبة، فظنها كلام الله تعالى.

إذن، فهم يقولون: لم لا نعتبر تركيز محمد ﷺ على احترام اليتيم والنهوض به ردّةَ فعلٍ منه على يُتْمه، فلكل فعل ردّةُ فعل، وهي تظهر أحيانًا بصورة معاكِسة له، وأحيانًا بالصورة نفسها، فبعض الناس عندما يرون الفظائع في الدنيا يتأثرون بها فيصبّون الظلم على الآخرين ظنًا منهم أنهم ينتقمون من الظالمين، وأما الآخرون فإذا رأوا الظلم في المجتمع ثاروا ضده بإرساء العدل وتقديم أي تضحية في هذا السبيل.

فعلْم النفس يخبرنا أن الناس يُظهِرون ردة فعلهم على خطأ بممارسة الخطأ نفسه أحيانًا، وأحيانا أخرى تكون ردة فعلهم على الخطأ بفعل معاكس، ولذلك يقول معارضو الإسلام: لماذا لا نعتبر هذا التركيز الشديد من قِبل محمد على النهوض باليتيم ردةَ فعل، إذ كان هو الآخر يتيمًا؟ فكأنهم يقولون إن هذه الآيات ليست وحيًا من الله تعالى، إنما هي صوت فطرة محمد إذ كان يتيمًا وتعرض للظُلم، ففكر أن كل ما يحدث معه إنما سببه أنه كان يتيما. كان مرهف الحس فأراد أن ينتقم من أهل الدنيا على ما فُعل به. لقد ثارت نفسه على تعرّض اليتامى مثله للظلم والأذى والمعاملة السيئة، فقال: حسنًا، الآن سأنتقم من الظالمين بالتعيير بهم وافتضاحهم وكشف مساوئهم نصرةً لليتامى. كان حَسَن الطبع، فتولدت فيه ثورة وانطلق من داخله صوت طبيعي، ولكنه لقلة علمه –معاذ الله– اعتبره وحيًا من الله تعالى.

ونقول ردًّا على هؤلاء القوم: ليس صحيحًا البتة أن القرآن الكريم صوت فطرة محمد ﷺ، وأن تعاليمه ليست إلا ردة فعل تولدت في قلبه برؤية مفاسد ذلك الزمان. لا شك أن عقيدتنا أن القرآن الكريم كلام الله تعالى، غير أننا نوقن بناءً على العلم الظاهر أيضا أن القرآن ليس نتيجة ردة فعل نفسية.

فنقول للمسلم المتشكك: إن القرآن الكريم ليس كلام محمد ﷺ، بل هو كلام الله تعالى؛ وباطلٌ القول بأنه ردة فعل محمد ﷺ. هل الله تعالى أيضا يتيم ومسكين حتى يقال أنه تولد عنده أيضا ردة فعل برؤية ما يُصبّ على اليتامى والمساكين من ظلم وجور، فكشف حالته لمحمد ﷺ؟

أما منكر الإسلام فنقول له في الجواب: حتى لو غضضنا الطرف عن دعوى القرآن الكريم، فإن ما يقولونه لا يصحّ عقلاً، لأن الوقائع تؤكد أن تعاليم القرآن الكريم حول اليتامى والمساكين ليست تعاليم انتقاميّة، بل إصلاحيّة؛ ذلك أننا عندما ننظر إلى الزمن الذي كان فيه الرسول ﷺ يتيما، نجد أن يتمه لم يكن شديدًا بحيث يولد عنده ردة فعل كهذه. فلو كان الرسول ﷺ بدون أقارب، أو كان أقاربه ظالمين يعاملونه بقسوة واحتقار وإيذاء، لجاز القول أن هذا الصوت كان صوتا انتقاميا لا إصلاحيا، لكن الواقع يكشف أنه لم يأت على النبي ﷺ يوم شعر فيه

بُتْمه. لا شك أنه ﷺ كان يتيمًا، لكن الله تعالى هيّأ له أسبابًا خفّفت عليه يُتْمَه فلم يشعر به. فعندما تُوفّي أبوه ﷺ تبنّاه جدّه عبد المطلب، ولكنه ترَكه في رعاية أمه ﷺ، و لم ينتزعه منها كما يفعل بعض الأقارب الظالمون حيث يأخذون اليتيم من أمه بقصد إيذائها بحجة رعايته وتربيته. لو انتزعه عبد المطلب من أمه ﷺ لشعرت بالأذى الشديد وبالتالي تأذى هو بسببها، ولكانت هناك إمكانية صدور ردة فعل منه، إذ لو سمع أقرانَه ينادون أمهاتهم، أو رأى آباءهم يقومون برعايتهم ويعتنون بهم، لقال ليتني كنت مع أمي لتعتني بي، وليت أبي كان حيًا حتى لا ينتزعني أحد من أمي. ولكن عبد المطلب لم يفعل شيئا كهذا، بل ترك النبيَّ ﷺ عند أمه، وقال لها: قومي برعايته وتربيته وإذا احتجتِ إلى شيء فأخبريني، ولا تظني أن أباه قد توفي، فإني أبوه من الآن. وما دام هذا هو الأمر الواقع فكان طبيعيا أن لا يتولد فيه أية ردة فعل بسبب يُتمه.

وكان أهل مكة يبعثون مواليدهم خارجها لكي تتحسن لغتهم وصحتهم بالعيش في البادية؛ إذ كان أهل البادية أرقى لغةً. علمًا أن هناك فرقًا بين بلاد العرب وغيرها، فإن اللغة في العالم تكون في المدن أرقى منها في الريف والبادية، أما في بلدان العرب فالوضع على عكس ذلك. كان مستوى اللغة واحدًا في المدن والبادية في كل الجزيرة في أول الأمر، ثم تسربت إلى لغتهم كلمات أجنبية على مر الأيام بحكم اختلاط أهل المدن بالأجانب، ولذلك كان أهل مكة يبعثون أولادهم إلى البادية ليعيشوا هناك خمس سنوات أو سبعا ليكونوا أحسنَ صحة وأقوى بنية برضاعة نساء البادية القويات، وليتعلموا اللغة الأصيلة البريئة من تأثير اللغات الأجنبية. ففي أيام ميلاد النبي ﷺ جاءت نسوة البادية إلى مكة ليأخذن من أهلها مواليدهم من أجل تربيتهم عندهن. وأرادت أم النبي ﷺ أن تسلّم ابنها لإحدى البدويات لتربّيه عندها، ولكن لم ترضَ أيٌّ منهن أن تأخذ محمدًا لأنه يتيم، ولن يعطيها أهله مكافأة مُرضية! وكانت السيدة حليمة بين هذه البدويات. كانت امرأة فقيرة، وقد جاءت لتبحث عن ولدٍ من عائلة ثرية لتنال مكافأة مُرضية على رعايته وتربيته، فذهبت إلى أم النبي ﷺ، فأخبرتها عن أحوالها المادية بصدق، فرجعت

حليمة يائسةً من عندها بحثًا عن وليد آخر. وكان أهالي المواليد أيضا يبحثون عن مراضع تنتمي إلى أسر ثرية لكي يتربى أولادهم عندهن تربية محترمة، أما حليمة فكانت فقيرة، فلم ترضَ أية عائلة أن تبعث معها وليدها. فرفضت كل مرضعة أن تأخذ معها النبي ﷺ لأنه يتيم، ورفضت كل عائلة أن تسلّم وليدها لحليمة لأنها فقيرة، فرجعت حليمة في آخر النهار إلى أم النبي ﷺ وقالت: سآخذ ابنك معي، فرضيتْ أم النبي ﷺ فرحةً مسرورة إذ كانت المراضع الأخرى قد رفضته، وهكذا وضع القدر الإلهي في حِجر حليمة ذات الحظ السعيد ذلك الوليد الذي كان من المقدر أن يصبح إنسانا تاريخيا.

فلو أن أمه ﷺ لم تجد له مرضعا و لم تبعثه إلى البادية لِقضاء سنوات من عمره هنالك، فكان من الممكن أن يشعر بالحرمان بسبب يُتمه، ويفكر عند رؤية غيره من الأولاد أنهم قد عاشوا خارج مكة في البادية في جوٍّ أفضل، وقد صاروا أحسنَ منه لغةً وأقوى جسدًا، فيقول: لَيتني لم أكن يتيمًا، فأذهب إلى البادية في صغري، فأُمارس هناك ألعابها وأشرب ألبانها، فتتحسن صحتي ولغتي أيضا؛ وعندها يمكن أن يتولد فيه ردة فعل ويقول: الآن سوف أنتقم من الناس على يُتمي. ولكن قلبه ﷺ لم يُصَب بهذه الجراح و لم يشعر بالحرمان نتيجة يتمه قط، فكيف يمكن أن يتولد فيه رد فعل على ذلك؟

ثم لما وصل النبي ﷺ إلى بيت حليمة تحسّنَ وضعها المادي وحلّت البركة في بيتها، فأدركتْ أن كل هذا ببركة هذا الوليد، فأحبّته هي وزوجها وأهلها صغارا وكبارا حبًّا جمًّا، وجعلوا يفدونه بأرواحهم. ولكن لو أن أهل حليمة ظلّوا فقراء وعاش النبي ﷺ عندهم في ظروف أقل رخاء مما عاش فيه أقرانه لكان هناك احتمال أن يتولد عنده ردة فعل على هذا الحرمان الناتج عن يُتمه (انظر: السيرة النبوية لابن هشام: ولادة رسول الله ﷺ ورضاعته).

ثم لما رجع النبي ﷺ من البادية إلى مكة، جعل جدُّه يفديه بقلبه وروحه ويسهر على راحته وخدمته. وعندما توفيت أم النبي ﷺ أخذه جدّه إلى بيته. يروي أبناؤه أن أباهم كان عظيم الهيبة، فإذا جلس في مجلس لم يجرؤ أحد منهم –وهم شباب–

أن يرفع إليه بصره هيبةً منه، ذلك لأن العرب كانوا يحترمون الكبار جدًّا، ويعلّمون احترامهم. أما النبي ﷺ فكان بسبب صغره يلعب مع جده ويركب على أكتافه أحيانا، فكان أبناء عبد المطلب ينظرون إليه بغضب، ولكن جده ينهرهم بشدة قائلا: لا تنظروا إلى ابني نظرة غضب.

باختصار، لم تأتِ على النبي ﷺ لحظة شعر فيها بالحرمان بسبب يتمه. كان عمره ﷺ ثماني سنوات أو تسعًا حين توفي جده (السيرة النبوية لابن هشام: ذكر وفاة عبد المطلب...)، فدعا قُبيل وفاته ابنه أبا طالب وقال له: أنت موضع ثقتي وأُحسن بك الظن أكثر من سواك من أولادي؛ وها إني أضع الآن في يدك أمانتي محمدًا، فعليك بتربيته كتربية أولادك ولا تجعله يحس بضيق أو حِرمان. فوفّى أبو طالب بعهده، فأحبه حبًّا جمًّا، حتى إنه كان يناديه: ابني ابني، مع أنه لم يكن ينادي أولاده هكذا.

كان النبي ﷺ وقورا في صغره أيضا كما يخبرنا التاريخ. فمع أن زوجة أبي طالب لم تكنْ تحبّه كثيرا، ولم تكن بينهما قرابة دم، كما لم يكن جدُّ النبي ﷺ قد أوصاها بشأنه أية وصية، إلا أن الثابت من التاريخ أنها لم تعامله بقسوة قط. فإذا أرادت توزيع شيء بين الأولاد بدأت بأولادها -ولعل ذلك لأنهم كانوا أصغر من النبي ﷺ- فكانوا يلتفّون حولها وكان كل منهم يصرخ أن تعطيه أولاً، بينما كان الرسول ﷺ يظل جالسا في هدوء ووقار ولا يشترك في هذه الضجة (السيرة الحلبية: ذكر وفاة عبد المطلب...). فإذا حضر أبو طالب في حينها ورأى النبي ﷺ جالسًا في ناحية، قال في نفسه لعله جالس هكذا لأنه يفكّر أن لا حق له على أهل هذا البيت، مع أن النبي ﷺ كان يجلس هادئا بسبب طبعه الوقور الذي امتاز به منذ صغره، فما كان أبو طالب يملك نفسه من شدة حبه للرسول ﷺ، وكان يقدّمه إلى زوجته قائلا لها: لِمَ لم تُعْطِي ابني شيئًا بعد؟ فكان أبو طالب يناديه دائما بابني، فكيف يمكن أن يشعر بيتمه؟ كان عند النبي ﷺ شعور واحد بأن أقاربه يحبّونه ويحسنون معاملته. لا شك أن الله تعالى هو الذي جعلهم يعاملونه بالحسنى، إلا أنه كان يشعر دائمًا أن أهله وأقاربه يلقونه بترحاب ويحبونه ويحسنون معاملته.

باختصار، لم يحدث في حياته ﷺ ما يُشعِره بيتمه قطّ. فثبت أن هذا التعليم القرآني ليس نتاج شعوره بالحرمان بيتمه حتى يسمى تعليمًا انتقاميا أو نتاج عقدة نفسانية عنده. وحتى لو اعتبرناه جدلاً نتيجة العوامل النفسية، فهو تعليم إصلاحي وليس انتقاميا أبدًا؛ إذ يقال عندها أن محمدًا ﷺ فكّر أن أقاربه الطيبين لم يدَعوه يشعر بيُتْمه، ومِن واجبه الآن أن يعمل من أجل دفع معاناة اليتامى. من الممكن عقلاً أن يتولد عنده ﷺ هذا الإحساس، ولكن لا يقبل العقل أن يتولد عنده أي إحساس آخر. غير أن الأمر الواقع هو ما ذكرتُ بأن الثابت عقلاً ونقلاً أن هذه التعاليم سماوية وليست من تأليف بشر.

وهناك اعتراض آخر ينشأ هنا: كيف يقال أن النتيجة الطبيعية لتكذيب الدين هي نهرُ اليتيم واحتقاره وقهره؟

والجواب: لا شك أن إنكار الدين بمعناه الحرفي لا يؤدي إلى قهر اليتيم واحتقاره، إلا أن إنكار أيٍّ من المفاهيم الاثني عشر التي ذكرتها للدِّين يؤدي حتمًا إلى احتقار اليتيم وغيرها من المنكرات. فيجب ألا يؤخذ الدين هنا بمعناه التقليدي، بل يجب الأخذ في الحسبان بجميع مفاهيمه الاثني عشر المذكورة آنفا، لأن إنكار أي واحد منها يؤدي إلى المعاصي والآثام يقينًا. ونهر اليتيم واحتقاره من أكبر المعاصي، وقد اختاره الله تعالى هنا خاصة لأنه ليس إثما فحسب، بل فيه دليل على أن صاحبه دنيء يفتقد إلى أدنى درجات الإنسانية. ثم إن هذا الإثم يضر بالمجتمع ويقضي على اتحاد الأمة ويؤثّر سلبيًا على أخلاق الأجيال التالية وتضحيات الأجيال الحالية. فلم يذكر الله تعالى هذا الإثم إلا مثالاً فحسب، لأن إنكار الدين يؤدي إلى سيئات كثيرة بما فيها نهر اليتيم واحتقاره.

ثم إن من الحِكَم وراء ذِكر هذه السيئة خاصة هو ما أشرت إليه آنفا بأن إهمال اليتيم يؤدي إلى انحطاط الأمة. إن تقدُّم الأمة منوط بإيثار أفرادها وتضحيتهم بأنفسهم، والشيء الذي يبقى بعدهم هو أولادهم، والمرء يريد التضحية بنفسه من أجل الأمة، ولكنه يتردد في ذلك إذا خاف على أولاده مِن بعده، إذ يتساءل: مَن يرعاهم بعدي؟ لو كان الأمر يتعلق بالتضحية بنفسه فحسب لم يكترث لها، ولكنه

يتعلق بمصير أولاده، فيتردد في التضحية مخافة أن يضيعوا مِن بعده، ومن أجل ذلك تجد أن الشباب هم الذين يتقدمون عند التضحية، ليس لأنهم أكثر ذكاء من الكبار، بل لأنهم يكونون عُزّابًا، أو لا يكون عندهم أولاد حتى يفكّروا في مصيرهم بعد موتهم، فلا يمنعهم مانع من التضحية، أما الكبار فيكون عندهم أهل وأولاد، فيقولون لو قُتلنا لأصبحت زوجاتنا أرامل وأولادنا يتامى، ولن يكون هناك من يرعاهم ويحسن إليهم فيضيعون، فهذه الفكرة تجعلهم يترددون في التضحية.

فالاعتناء باليتيم يحثّ أفراد الأمة على الإيثار والتضحية، والحق أن مستوى تضحيةِ الأُمة يكون بحسب مستوى اعتنائها بأيتامها، وكلما كانت أكثر رعايةً لليتامى كان أفرادها أكثر إيثارا وتضحية. ولا يرعى الناس الأيتامَ باعتباره واجبًا دينيًّا فحسب، بل باعتباره واجبًا دنيويًّا أيضا، فالأوروبيون مثلاً يعتنون بأيتامهم جدا، وبعضهم ينذرون حياتهم في سبيل رعايتهم، فيفتحون لهم دُورًا كبيرة وينفقون عليها ويجمعون التبرعات من أجلها. أما في بلادنا فيفتحون دور اليتامى للمنافع الشخصية، إذ يجبرون اليتامى على التسول. الحق أن مستوى التضحية عند أمة لا يمكن أن يرتفع من دون أن يكون عندها نظام لرعاية اليتامى، ولذلك قد ذكر الله تعالى هذا الأمر هنا خاصة، فقال إن الذي ينكر الدين بأيٍّ من مفاهيمه المذكورة لا بد أن يظل محرومًا من الحسنات الفردية والجماعية؛ والتي إحداها رعاية اليتامى والأخرى النهوض بالمساكين. أما الذي يؤمن بالدين فلا بد أن يهتم بطهارة نفسه وخدمة أمته، فهو بالإضافة إلى القيام بالحسنات الأخرى يؤمن أن الله تعالى سيعاقبه هو وأولاده إذا أساء إلى اليتامى، فلا يسيء إليهم أبدا.

كان المجتمع الإسلامي في زمن الرسول ﷺ يقوم برعاية اليتامى بوجه خاص، أما المشركون فإذا قُتل أحدهم لم يرعوا أولاده اليتامى. كان أهل المدينة يضعون اليتامى على الرأس والعين، ولذلك كانوا لا يترددون في الإيثار والتضحية؛ إذ لم يكونوا يخافون على أولادهم بعد موتهم. أما أهل مكة فكانوا يخافون أنه لن يكون هناك مَن يرعى أولادهم بعدهم إذا ماتوا.

ونجد اليوم كثيرًا من الأرامل بلا زوج، أما في عهد الرسول ﷺ فما كانت الأرملة تكمل أيام عِدّها حتى كان الناس يخطبونها ليقوموا برعايتها ورعاية أولادها. لقد تزوج النبي ﷺ عدة أرامل من أجل رعايتهن وأولادهن. وسأل النبي ﷺ شابا مرة قائلا: لماذا لم تتزوّج بِكْرا؟ فأجاب: تزوجتُ أرملة من أجل أيتامٍ لأخي، إذ كانوا بحاجة إلى أرملة خبيرة تقوم بتربيتهم.

وكلما استُشهد أحد الصحابة أو تُوفّي سأل الآخرُ الرسولَ ﷺ أن يزوّجه من أرملته كي يعتني بأولاده الأيتام فيثاب عند الله تعالى. فما كان في ذلك المجتمع إمكانية أن يبقى الأيتام من دون رعاية. ورُبَّ يتيمٍ كان يمسك بيد النبي ﷺ إذا مرّ بالسوق ويذكر له حاجته، فكان يتوقف له ويقول: تعال نسدّ حاجتك أولاً. وكان من الصحابة مَن تزوّج مِن أرملة ثم قسم أمواله على أولادها. وهذا هو السبب وراء عدم تردّد الصحابة في تقديم التضحيات والموت في سبيل الله. كانوا يعلمون أنهم إذا ماتوا فهناك كثير من أصدقائهم الذين يقومون مِن بعدهم برعاية أولادهم وتربيتهم. لا شك أنهم يضحّون بأرواحهم نتيجة إيمانهم ورغبتهم في وصال الله تعالى، ولكن إذا اجتمع معه الحافز الدنيوي أيضا كانت التضحية أفضل وأروع.

هناك عيب في أفراد جماعتنا بأنهم لا يرعون اليتامى كما ينبغي، ولذلك يخاف أبناؤها الموت. لو تمّت رعاية اليتامى في الجماعة كما ينبغي وأدرك أبناؤها أنهم لو ماتوا فلن يضيع أولادهم من بعدهم، بل ستتم تربيتهم على ما يرام، لازدادوا حماسًا للتضحية. إنني لا أفتح دارًا لليتامى الآن لأني قد فتحتُها مرارا من قبل، فبدأوا يسخّرونهم في أعمالهم الشخصية، ففضّلتُ أن أُسكن الأيتام في المدينة الطلابية.

وَلَا تَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ﴿٤﴾

شرح الكلمات:

لا يحضّ: حَضَّه على الأمر: حمَله عليه. (الأقرب)

التفسير: لم يقل الله تعالى هنا "يَدُعُّ"، بل قال ﴿لا يَحُضُّ﴾.. أعني أنه تعالى لم يقل هنا: ستجد أنّ مَن يكذّب بالدين يدُعّ المساكين، بل أخبر أنه لا يحضّ غيره على إطعام المسكين؛ وفي هذا إشارةٌ إلى أنه يُطعِمهم ولكن بنية غير خالصة، إذ لو أطعمهم بنية حسنة لحضَّ الآخرين على إطعامهم، لأن المرء إذا أحب شيئًا رغّب فيه غيره؛ فما دام هذا يطعم المساكين ولا يحض غيره على إطعامهم، فثبت أنه يطعمهم رياءً وخجلاً من الآخرين، لا حبًا ورغبةً في هذه الحسنة.. كأنه قيل: إنه يطعم المسكين إذا سأله، ولكنه لا يرغب في مساعدة الفقراء عمومًا. الحق أن تحريض المرء الآخرين على إطعام الفقراء يكفل لهم الطعام من دون سؤال، إذ لا يضطرّون في هذه الحالة للسؤال.

هنا ينشأ سؤال وهو: لماذا استعمل الله تعالى فِعْلَ ﴿يَدُعُّ﴾ عند ذكر اليتيم، واستعمل فَعْلَ ﴿لا يَحُضُّ﴾ عند ذكر المسكين؟

والجواب أن اليتيم يكون صغير السن عادة، فلو نَهَره أحد لم يُثِرْ ضده احتجاجًا ولا ضجة، غاية ما يفعله أنه سيذهب ويجلس بعيدا عنه، أما الشخص الكبير فلا ينهره الناس مخافة أن يثير ضجة واحتجاجا. فحيث إن الناس قليلا ما يزجرون المساكين فقال الله تعالى ﴿وَلا يَحُضُّ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ﴾.

وهناك سؤال آخر: لماذا ذكر الله تعالى هنا نهر اليتيم وعدم حث الآخرين على إطعام المساكين، مع أنهما من العيوب الهامشية إزاء الحسنات الأساسية المذكورة من قبل؟

والجواب أن الحديث هنا يتمحور حول ضرورة النظام والنهوض بالأمة، وأيُّ شك في أن إهمال اليتامى والفقراء دليل على ضعف عاطفة خدمة الأمة؟ فإذا ضعفت هذه العاطفة في الأمة ضعف اتحادها، وإذا لقِي اليتامى الإهمالَ تردّدَ الناس في تقديم التضحيات في سبيل الأمة. ثم إن الفقراء يُساعَدون لكي يساعِدوا عند الحاجة، وإذا لم يُساعَدوا فلن يساعِدوا. والأمة التي يُحسَن فيها إلى الفقراء فإن فقراءها يتحمسون لتقديم التضحية لها. فالعمال في أمريكا وبريطانيا وفرنسا مثلاً

يُعطَون أجرة كافية، فيعتبرون أنفسهم جزءًا من أُمّتهم، فلا يترددون في تقديم التضحية في سبيلها. باختصار، إن إهمال الفقراء يؤدي إلى ضعف الأمة، وإهمال اليتامى يقلّل من عاطفة التضحية فيها، وكلا العيبين كافٍ لدفعها إلى هوة الدمار.

فَوَيۡلٞ لِّلۡمُصَلِّينَ ۝٤

شرح الكلمات:

ويل: كلمةُ عذاب، يقال: ويلٌ له، وويلاً له، وويلٍ له. (الأقرب)

التفسير: الفاء في قوله تعالى ﴿فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ﴾ يدل على أن الآيات السابقة أيضًا كانت تتحدث عن المصلين، وإلا فلا تبقى هناك أية علاقة بين هذه الآية والتي قبلها، إذ كيف يمكن أن يقوم بتكذيب الدين ودَعِّ اليتيم قومٌ، وتنـــزل اللعنةُ على المصلين؟ هذا غير معقول.

لقد سبق أن بيّنتُ أن سُوَر جزء (عم) تتحدث بالتناوب عن العصر الأول للإسلام ثم عن العصر الأخير منه، فسورة الفيل تتحدث عن الزمن الأخير، وسورة قريش تتحدث عن زمن الرسول ﷺ، وعليه فإن سورة الماعون أيضًا تتحدث عن الزمن الأخير، مما يؤكد أن الحديث في الآيات السابقة كان عن المسلمين والمصلين. ولا يصحّ الاعتراض هنا: كيف يمكن أن يُعَدّ المسلم والمصلي منكرًا للدين؟ ذلك أن الأحداث قد أكدت أن طائفة من المسلمين اليوم لا يوقنون بالحشر والنشر رغم إيمانهم بالقرآن، إذ يوجد بينهم من يقول كما ورد في المثل البنجابي عندنا: هذه الدنيا حلوة لذيذة، فكيف نترك لذاتها ومُتعها من أجل الآخرة التي لم يَرَها أحد؟ فإنك إذا عرضت عليهم أحكام الإسلام قالوا بأفواههم آمنّا وصدّقنا، ولم تؤمن قلوبهم بها. فالحق أن مسلمي الزمن الأخير هم الذين يؤمنون بالإسلام بأفواههم، ولم تؤمن قلوبهم؛ وهم الذين يزجرون اليتامى، ويهملون المساكين، ويرتادون

السينما، ويحضرون الرقص والغناء، وإذا خرجوا من هناك هتفوا: الله أكبر، الله أكبر، وطالبوا بالقضاء على الحكومة التي لا تعمل بشريعة الإسلام. نساؤهم يحضرن محافل الرقص والغناء، ويذهبن إلى السينما ويشاهدْن في الأفلام أفعالاً سخيفة من تقبيل وعناق بين الرجل والمرأة. إن الإسلام يعلّم أن لا يدخل الأولاد على أبويهم حين يتحدثان براحة على انفراد إلا بعد الاستئذان، أما في السينما فلا يكون هناك أولاد الممثلين والممثلات بل أولاد الآخرين، فيشاهدون هذه الأفعال السخيفة هناك، ثم يطالبون بتطبيق الشريعة الإسلامية! ما هذا الجنون! يقولون بأفواههم ما لا يعملون به. فيجب أن لا ينخدع أحد بكلمات تكذيب الدين، فيظن أن الحديث هنا عن الكافرين، كلا، بل صدور كل هذا ممكن من المسلمين، بل قد صدر منهم فعلاً كما رأينا بأم أعيننا في هذا الزمن؛ فإياهم يعني الله تعالى حين قال ﴿فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ﴾.. أي أنهم ملعونون إذ يصلّون ثم يأتون هذه المنكرات، ولو أنهم أنكروا الإسلام أصلاً لكان أفضل؛ إذ يسيئون بأفعالهم إلى الرسول ﷺ إساءة بالغة مع ادعائهم الإسلام.

إذًا، فالفاء في قوله تعالى ﴿فَوَيْلٌ﴾ تؤكد أن الآيات السابقة تحدثت عن المسلمين لا عن أبي جهل؛ إذ لم يكن يصلي، والفاء في المصلين هي للعهد الذِكْريّ، والمراد: ويل للمسلمين الذين سبق ذكرهم.

والسؤال هنا: كيف قيل هنا: ويل للمصلين؟ مع أن الصلاة لا تؤدي إلى الويل، بل قال الله تعالى ﴿إِنَّ الصَّلاة تَنْهى عَنِ الفَحْشَاء وَالْمُنْكَرِ﴾(العنكبوت:٤٦) .

وقد جاء الجواب على هذا السؤال في الآية التالية.

ٱلَّذِينَ هُمۡ عَن صَلَاتِهِمۡ سَاهُونَ ۝٦

شرح الكلمات:

ساهون: سها في الأمر وعنه: نسيه وغفَل عنه وذهَب قلبُه إلى غيره.... وقيل: إذا عُدِّيَ سها بِـــ "فِي" كان معناه الترك من غير علم، وإذا عُدِّيَ بِـــ "عَنْ" كان معناه الترك عن علم (الأقرب).

أي أنه إذا قيل: سها في الصلاة، فمعناه ترَك شيئا منها وزاد شيئا فيها نسيانا، أما إذا قيل: سها عنها، فمعناه ترَك شيئًا منها أو أحدث فيها شيئًا عن عمد.

التفسير: لم يقل الله تعالى هنا: "الذين هم عن الصلاة ساهون"، بل قال ﴿الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلاتِهِمْ سَاهُونَ﴾، وفي كلمة ﴿صَلاتِهِمْ﴾ إشارةٌ إلى أنهم يصلّون في الظاهر فقط.. أي أنهم ليسوا تاركي الصلاة كلية، بل يصلّونها في زعمهم، ولكنهم يتركونها أحيانًا، وأحيانًا يصلّون دونما تركيز فيفسدونها.

وباستعمال حرف (عن) قد بين الله تعالى أنهم لا يتركون الصلاة خطأً، بل يتركونها عمدًا؛ ولا رغبة لهم فيها.

إذن، فقد أشار الله تعالى هنا إلى اثنين من عيوبهم، أوّلهما أنهم يتظاهرون أنهم يصلّون صلاةَ الله، مع أنهم يصلّون صلاتَهم، والثاني أنهم لا يركّزون في الصلاة؛ إذ لا يصلّون رغبةً وشوقًا، وإنما عادةً وتقليدا مخافةَ أن يلومهم القوم والأقارب والزوجة والأب والأخ. والحق أن جميع هؤلاء يصلّون خجلاً ورياءً للطرف الآخر، فالشيخ يصلي خجلاً من المقتدي، والمقتدي يصلي خجلاً من الشيخ، ومن أجل ذلك نجدهم إذا ذهبوا إلى بلاد الكافرين تركوا الصلاة كلية، غير أنه إذا كان هناك اجتماع للمسلمين حضروا بعمائم طويلة ضخمة ومشوا بين القوم ليظنوا أنهم من كبار المصلين. أو إذا مات كبير من القوم حضروا جنازته ليعلَم الناس أنهم مسلمون. لو كانوا يوقنون بالآخرة حقًا لما صلّوا رياءً، وحيث إنهم لا يوقنون بضرورة الصلاة فكيف يوقنون بالحياة الآخرة؟ وما داموا لا يوقنون بالآخرة فلماذا

يصلّون صلاة الجنازة إذن؟ الواقع أنهم لا يصلّون الجنازة ليدعوا لهؤلاء الموتى، وإنما يحضرون الجنازة رياءً للناس وتظاهرًا بإيمانهم، لأن الناس يجتمعون بكثرة عند وفاة كبراء الناس، فيجد هؤلاء فرصة جيدة للتظاهر بإيمانهم.

ٱلَّذِينَ هُمۡ يُرَآءُونَ ٦

شرح الكلمات:

يُرَاءُونَ: راءيته مُراءاةً: أي أريتُه على خلاف ما أنا عليه. (الأقرب)

التفسير: يوجد بين المسلمين في هذا العصر فئة تركوا الصلاة كلية، وفئة أخرى يصلّون رياءً لا حبًّا لها وشوقًا، أي قد صار بعضهم لادينيّين كلية، فلا يؤمنون بالإسلام ولا الصلاة، وبعضهم يُظهرون التدين في المناسبات العامة آخذين بالقشر معرضين عن اللب، وليس هدفهم إلا التظاهر بالصلاح أمام القوم.

وَيَمۡنَعُونَ ٱلۡمَاعُونَ ٧

شرح الكلمات:

الماعون: المعروفُ؛ كلُّ ما انتفعتَ به؛ أو كلُّ ما يستعار مِن فأس وقَدّوم وقِدر ونحوها من منافع البيت.... قال أبو عبيدة: الماعون في الجاهلية كلُّ منفعة وعطيّة، وفي الإسلام الطاعةُ. (الأقرب، والبحر المحيط)

التفسير: أي أنهم ينهون غيرهم عن الإحسان إلى الناس، أو يمنعونهم مِن إعارة أشيائهم البسيطة لهم، أو أنهم بأنفسهم يمتنعون عن إيتاء هذه المرافق البسيطة للآخرين. وكأن الله تعالى يخبر هنا أن المسلمين سيبلغون الحضيض في يوم من الأيام، ويفسدون لدرجة أنهم لن يُسْدوا أدنى معروف إلى الآخرين لمصلحة الأمة. وهذا المشهد المخزي نشاهده كل يوم ولا سيما في القرى، حيث تجد أحدهم إنْ

لمس شيئا لغيره، احمرَّت عيناه. هذا ما أخبر الله تعالى هنا بأنه سيأتي على المسلمين زمان يتردوْن فيه إلى الحضيض، فإذا صلّوا صلّوا رياءً، ولن يفكّروا لمصلحة الأمة، ولن يضحّوا أدنى تضحية لمصلحتها.

أما نظرًا إلى المعنى الذي ذكره أبو عبيدة للماعون، فستعني الآية أن المسلمين لن يبقى عندهم طاعة ولا انقياد، وهذا ما نلاحظه بأم أعيننا في هذا العصر، فكلٌّ منهم مائلٌ إلى التمرد والعصيان، وانمحى عندهم الإحساس بالأمة. كلٌّ يفكّر من أجل مصلحة نفسه أو أصدقائه، أما التفكير بالأمة فمعدوم بينهم. لا شك أنهم يردّدون اسم الأمة كثيرًا، ولكن إذا كان في ذلك مصلحتهم الشخصية أو مصلحة حزبهم وقبيلتهم. إنا لله وإنا إليه راجعون.